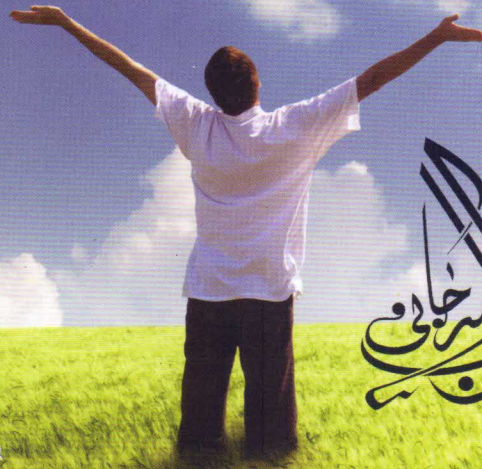


Meditation

التأمل

كيف تصل إلى اليقين

محمد إمامي



أسامة

تقديم
دكتور
الشيخ
السرخسي

مؤسسة اقرأ
للنشر والتوزيع والترجمة



www.iqraakotob.net

النأمل



كيف تصل
إلى اليقين

محمد إلهامي

تقديم



أ.د. راغب السرجاني



جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٣٢ هـ - ٢٠١١ م

رقم الإيداع: ١٩٧٨٧/٢٠١٠

بطاقة الفهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد الهيئة المصرية العامة
لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

إلهامي، محمد.

التأمل : كيف نصل إلى اليقين/ تأليف/ محمد إلهامي

القاهرة : مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع والترجمة، ٢٠١٠

(١٦٠ ص)، ٢٤ سم تدمك: ١-٧٩٠-٤٤١-٩٧٧-٩٧٨

١ - التأمل (تصوف إسلامي) - اليقين

٢٦٨.١

١ - العنوان

مركز السلام لتجهيز الفني
عبد الحميد عمر
٠١٠٦٩٦٢٦٤٧

مؤسسة اقرأ

للنشر والتوزيع والترجمة

١٠ ش أحمد عمارة - بجوار حديقة الفسطاط

القاهرة ت: ٢٥٣٢٦٦١٠ محمول: ٠١٠٥٢٢٤٢٠٧ - ٠١٢٦٣٤٤٠٤٣

E-mail: iqraakotob@yahoo.com

www.lqraakotob.net

إهداء

إلى أمي..

المرأة التي جمعت بين الطيبة الصافية والذكاء الحاد، وقليلاً ما يجتمعان..

تستطيع بشكل عجيب أن تنسى الإساءات، وأن تعفو عن من ظلمها ثم تبيت ولا شيء في قلبها على أحد..

إلى الغالية الحبيبة... حفظها الله ورعاها وأسعدها وأرضاها»

وإلى أبي..

ذلك الرجل الذي ما رأيت أصلب منه.

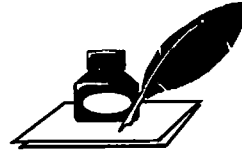
ليس يستطيع أن يرتكب ما يراه هو من خوارم المروءة، مهما كان مضطراً ومهما كان معذوراً، ثم هو الذي ما رأيت أشد كتماناً منه عن نفسه وأخباره وحياته.

إنني أكتشفه من جديد في كل يوم، وفي كل حكاية أسمعها عنه من غيره، فتكشف لي أفق عظمة جديدة..

أسأل الله أن يمتعته بالعافية وحسن العمل ما كتب له الحياة..

ابنكما / محمد

تقديم



بقلم

أ.د/ راغب السرجاني

كنت مشغولاً خلال الأسابيع الماضية بإجابة سؤال تلقيته من إحدى الطالبات تسأل عن كيفية الارتقاء الإيماني! بمعنى هل هناك سبيل واضح يستطيع المرء أن يسير فيه ليصعد بنفسه إيمانياً، ويزداد يوماً بعد يوم؟ وإذا كان هناك هذا السبيل، فما هي بدايته؟ وبعد بحث واستقصاء، وقراءة وتمحيص، وتفكر وتدبر، وصلت إلى ما أعتقد أنه إجابة لسؤال الطالبة، وتبين لي أن أول الطريق لهذا الصعود هو «التأمل»! والتأمل الذي أقصده هو القراءة بتدبر ووعي لكتاب الله المقروء وهو القرآن الكريم، وكذلك القراءة بتدبر ووعي لكتاب الله المنظور وهو الكون..

إن هذه القراءة المتأنية للقرآن والكون ستقود حتماً إلى أن نقدر الله قدره، وإذا قدرنا الله قدره فإننا سنسلم أنفسنا له، طائعين مختارين، فنكون حيث أراد، ولا نكون حيث لا يريد.. وستصبح عندها عبادتنا وطاعتنا وامتناننا لكل ما أراه أمراً طبيعياً فطرياً، وسيظهر الشكل السوي للعلاقة بيننا كعبيد وبين الله عز وجل كإله ورب.

لقد كانت بدايات قصة الإسلام هي التفكير والتأمل، فقد حُجِّب إلى رسول الله ﷺ الخلاء، فكان يذهب إلى غار حراء يتحنث - أي يتعبد - الليالي ذوات العدد، فإذا كان يفعل في خلوته هذه؟ إنما كان يتفكر في هذا الكون وخالقه سبحانه وتعالى، وظل على هذه الحال ثلاث سنوات كاملة حتى جاءه الوحي من ربه..

إن أول الطريق إلى الله عز وجل أن تتفكر في خلقه وفي كلامه سبحانه وتعالى، والذي لا يجد قلبه عند قراءة القرآن، أو لا يجد قلبه عند وقت الخلوة والتفكير، فليعلم أنه على خطر عظيم، فهو لم يصل بعد إلى أول الطريق، ويوشك من لم يعرف أول الطريق أن يضل.. يقول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: اطلب قلبك في ثلاثة مواطن: في مجالس الذكر وعند

سماع القرآن وفي أوقات الخلوة.

ولهذا كان أبو الدرداء يصرف وقتاً طويلاً من عمره في التفكير، وكان عامة الناس يرونه على هذه الهيئة فيظنون أنه يضيع وقته دون عمل، فسألوه: هل التفكير عمل من الأعمال؟ فرد بردّ حازم فاهم قائلاً: نعم، هو اليقين!

وهذا عين ما قصدته بأن التفكير والتأمل هو بداية الطريق.. فاليقين من صحة الطريق يدفعك للسير فيه بحماسة وقوة، أما الشك والتردد فإنه يقود إلى التخبط والضلال..

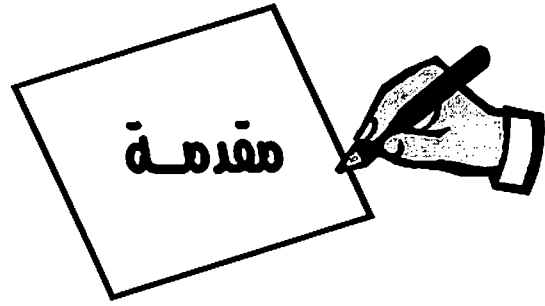
وبينما أنا أصوغ إجابتي حول هذا الموضوع المهم، إذا بي أتسلم من أخي الكريم محمد إلهامي كتابه الأول يطلب مني أن أكتب مقدمة له، وإذا بي أجد أن عنوانه هو «التأمل»! فقلت في نفسي «الله أكبر»! فهذه إشارة لا بد من التفكير فيها، وهذا التزام ليس عشوائياً، ولكن أراد الله عز وجل أن يشرح صدرك لاختيار التأمل كأول علامات الطريق..

والأخ الكريم محمد إلهامي باحث شاب أعطاه الله عز وجل من الملكات والمواهب الكثير، فهو ليس غزير المعرفة فقط، ولا مبدعاً في أسلوبه وتعبيراته فحسب، وإنما أهم من كل ذلك أراه عميقاً في رؤيته وتحليله، وناقداً متديراً، لا يُسَلِّم بما قد يراه عامة الباحثين من المُسَلِّمات.. إنها يبحث ويُنقَّب، ويقرأ ويحلل، ويبتكر ويدع.. وقد يخرج بشيء جديد تماماً عما رآه السابقون، أو قد يؤيد ما قالوه، لكن بعد وعي وإدراك، ودليل وحجة، فأنا أحسبه - والله حسيبه - على خير كبير، وأسأل الله ﷻ أن يجعل نظرتي فيه صائبة، وليكون له - بإذن الله - شأن كبير، فاللهم ارزقه الإخلاص في كل أقواله وأعماله.

جاء كتابه هذا تفصيلاً لما لخصته للأخت السائلة، وجاء شارحاً وافيًا لعبادة مهجورة، وإضافة جيدة - بل ممتازة - للمكتبة الإسلامية، وفي اعتقادي أن هذا أول الغيث، وسيتبعه سيل غزير نافع يمكث في الأرض بإذن الله، فاللهم وفقه لكل خير، وسدّد قلمه وفكره، حتى تخرج أمتنا من كبوتها، وتستعيد مكانتها بجهد وجهده أمثاله من العاملين..

والله من وراء القصد، وهو يهدي السبيل..

أ.د. راغب السرجاني



بسم الله، والحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ.

«البعرة تدل على البعير، وأثر
السير يدل على المسير، أسماء ذات
أبراج وأرض ذات فجاج.. ألا يدل ذلك
على اللطيف الخبير؟»^(١).

هذه الكلمات البسيطة الواضحة، كانت لأعرابي لم يحفظ التاريخ والرواة اسمه، ذلك
أنه أعرابي عادي بسيط من بين كل الأعراب الذين امتلأت بهم الجزيرة العربية ذلك
الوقت، لكن كلماته هذه قد خلّدت في التاريخ روحاً ومعنى وإن كنا قد جهلنا اسمه.

سمع الرجل بالدعوة إلى الإسلام فأمن بتلقائية وفي بساطة، وفسر هذا الموقف
بكلماته الواضحة السهلة القليلة التي تدلنا على أن هذا الرجل «متأمل».

لقد كان يعرف بوضوح أن لهذه السماء الواسعة العالية صانعا سواها وعلاها، وهذه
الأرض صانعا - كذلك - خلقها ومهداها.. يعرف ذلك بنفس الوضوح وبنفس اليقين
الذي يستقر في نفسه أن بعيرا قد عبر من هنا إذا رأى بعرة، وكذلك بنفس الوضوح
ونفس اليقين إذا رأى أثر قدم يغوص في الرمال أن ثمة من سار هنا.

هكذا ببساطة، بتلقائية، وبوضوح.

هذه السطور القادمة تلقى الضوء وتلفت النظر إلى عبادة تخفت هذه الأيام رغم

(١) ابن الوزير: إشار الحق على الخلق ص ٥٢

عظمتها، وتاكلها دوامة الحياة المتسارعة، وتضيع بين الزحام والعمل والمواصلات.. ثم البيت واحتياجات الزوجة (أو الزوج) وطلبات الأولاد.

ورغم أنها المدخل الطبيعي للإيمان بالله تبارك وتعالى..

ورغم أنها أول طريق اليقين في الله تبارك وتعالى..

ورغم سهولتها ويسرها..

ورغم لذتها وروعتها..

ورغم احتياجنا إليها..

هذه العبادة، هي عبادة التأمل أو التفكير.. وكل من امتلك نفسا تريد الحق ومارس

هذه العبادة.. كلهم.. كلهم.. بلا استثناء، بدأوا في طريق الإيمان بالله تبارك وتعالى.

سل الواحة الخضراء والماء جاريا وهذى الصحارى والجبال الرواسيا

سل الكون مُزْدَانًا سل الزهر والندى سل الليل والإصباح والطير شاديا

سل هذه الأنسام والأرض والسما سل كل شيء، تسمع التوحيد ساريا

ولو جنَّ هذا الليل وامتدَّ سَرْمَدًا فمن غير ربي يُرْجِع الصبح ثانيا

انتهيت منه بفضل الله تعالى في ليلة الجمعة ١٧/٣/٢٠٠٦^(١).

محمد إلهامي

(١) تعطل خروج الكتاب إلى الطبع أربعة أعوام، فأضفت إليه بعض الزيادات والتنقيحات، وانتهيت منه ليلة الاثنين الرابع من شوال ١٤٣١ هـ الموافق ١٣ سبتمبر ٢٠١٠ م.



الباب الأول اليقين

- ﴿ كلنا يريد الإيمان.﴾
- ﴿ الإيمان.. اليقين﴾
- ﴿ لماذا نحتاج إلى اليقين؟﴾
- ﴿ حلاوة الإيمان ويرد اليقين.﴾



كلنا يريد الإيمان

لأن الإيمان هو الذي يعيد صياغة نظرة الإنسان لهذا الكون وهذه الحياة..

من لا يعرف الإيمان بالله وبالأخرة، يتطور إلى واحدة من ثلاث حالات:

١- من لا يعرف الإيمان بالله وبالأخرة ينظر للحياة نظرة سوداء متشائمة، يراها فترة عبثية لا يدري لم أتى إلى هذه الدنيا؟ وأين كان قبل أن يأتي؟ وأين سيذهب بعدها؟ وهل كل شيء ينتهي بالموت؟ هل التراب قادر على تسوية كل المشاكل بين الظالم والمظلوم، وبين القاتل والقَتيل!!؟؟

هذه النظرة المتشائمة، أقل نتائجها أمراض مثل الكآبة والقلق.. أو الجنون.. أو الانتحار.

نجبرنا طبيب النفس الشهير الدكتور هنري ليك بعد تجربة السنين الطويلة باكتشافه أنه لا مناص عن الإيمان لعلاج الأمراض النفسية، ومع تعدد وتكرار النجاح بهذا الأسلوب وجد نفسه يعود من جديد إلى الإيمان، تاركًا الإلحاد، وألّف كتابه الشهير «العودة إلى الإيمان».

يقول: «وجدت نفسي - أنا الملحد المنكر للبعث الكافر بالله - أتحمس بشدة مدافعًا عن مبدأ الاتجاه الديني في الحياة»^(١). وقد بدأت رحلة الإيمان عنده، كما يقول في كتابه، منذ ذلك الاختبار النفسي الذي أجرته مصلحة التشغيل في نيويورك على العاطلين، وكان هنري ليك من مستشاري المشروع توصلوا إلى «نتيجة هامة - وإن لم تُنشر إليها في التقرير النهائي - هي أن كل من يعتقد دينًا أو يتردد على دار للعبادة يتمتع بشخصية أقوى وأفضل ممن لا دين أو لا يزال أية عبادة»^(٢).

(١) د. هنري ليك: العودة إلى الإيمان، ص ١٧.

(٢) السابق ص ٢٥.

حتى الفلسفة النفعية التي لا تفكر إلا في الحياة والمادة، والتي لا يهمها أن يوجد الإله أو لا يوجد، حتى هذه الفلسفة النفعية تقول بضرورة الدين للوصول إلى حياة أفضل؛ فهذا وليم جيمس^(١) يرى أن الخير هو «إشباع مطالب الإنسان وتحقيق رغباته»، ولكن مع بحثه عن هذه المطالب والرغبات وصل إلى نتيجة نفعية غريبة، تلك هي قوله: «من حقنا أن نعتق مبدأ خلقياً أو معتقداً دينياً لا يحملنا على اعتناقه تفكيرنا النظري المجرد، بل تدعونا إلى اعتناقه مطالب الحياة ومقتضياتها». ولذلك فهو يرى ضرورة الدين، لأنه «يتحول عند المؤمن إلى سلوك ناجح في حياته، فالإيمان يساعد صاحبه على احتمال الكوارث ويجعله أقدر على الصبر والعمل، بعكس الإلحاد الذي يدفع بصاحبه إلى الانتحار إذا أصابته كارثة.

ونفس المنطق هذا قال به فيلسوف النفعية الشهير جون ديوي الذي رأى أن الأفكار والمثل العليا والمبادئ مجرد وسائل وذرائع يستعين بها الإنسان فيتوجه سلوكه إلى حيث تتحقق مطالبه ورغباته^(٢).

إن الغالبية الكاسحة من الشعوب الإسلامية تجهل «قيمة الإيمان»؛ لأنها لا تعلم مدى المأساة التي يخلقها الفراغ الإيماني في الغرب، وكيف يتحول الإنسان إلى مريض غارق في معاناة كالجحيم، وكيف تصدر عنه أفعال مثيرة للاشمئزاز^(٣).

٢- من لا يعرف الإيمان بالله وبالأخرة، حين يعلم أن الدنيا فترة بلا معنى وبلا هدف ينقض عليها محاولاً افتراس أكبر جزء منها في صراع شرس محموم عنيف مع كل المنهمرين على مكاسب الدنيا.. صراع تتلاشى فيه كل الصفات الإنسانية.. لتعود صراعا بين كائنات أخرى.. بين الأنياب والمخالب والأظافر. ومن لم يُقتل نَهْشًا وتقطيعًا في هذا الصراع خرج منه مهلود الجسد، مهموم البال.

(١) فيلسوف أمريكي ومن أشهر فلاسفة «النفعية».

(٢) د. مصطفى حلمي: الأخلاق بين الفلاسفة وعلماء الإسلام ص ٦٥، ٦٦.

(٣) لقد آثرت ألا أذكر نماذج من هذه الأفعال مراعاة لشعور القارئ الكريم، ولكن حسبي أن أشير إلى أنه وجدت «مدرسة فنية» تمارس الرسم بـ «البراز»، وأن الانترنت يحتوي على مواقع تقدم للمشاهد «لذة» تعذيب البشر.

ولذلك لم يعد العمل - في عصرنا المادي هذا - شيئاً يتم لأنه من احتياجات الإنسان وغرائزه، وإنما أصبح نشاطاً يؤدي لزيادة الإنتاج وتعظيم الثروة المالية، ولذا لا يبحث الإنسان في ظل المنظومة المادية عن العمل الذي يجبه و«يستمتع» به، بل عن العمل الذي يحقق له الثروة، ولقد اختفى يوم العمل الذي كان يبدأ في التاسعة وينتهي في الثانية، ليأتي يوم عمل يبدأ في الثامنة أو التاسعة ثم ينتهي في الخامسة أو السادسة، هذا فضلاً عن أن العمل نفسه أصبح يريد الإنسان - الآلة - ذلك الإنسان الذي يستطيع وبكفاءة إنجاز أعلى إنتاج في أقل وقت وبأقل التكاليف^(١).

فالإنتاج والربح والمال هو الإله الجديد في هذه الحياة الجديدة التي لا تضع الله والآخرة في حساباتها.. حياة يصير شعارها ما قاله المتنبي في لحظات هم وغم:
والظلم من شيم النفوس، فإن تجدد ذا عفة، فلعلّة لا يظلم

ويُعتبر الفيلسوف الألماني الشهير «نيتشه» مثلاً ناطقاً على هذه الحالة، لأنه الفيلسوف الذي أعلن وبوضوح أن الحياة لا مجال فيها للأخلاق ولا للرحمة ولا للشفقة، ومن عباراته الشهيرة قوله «أين هي أعظم مخاطرك؟ إنها في الشفقة!» بل إنه يصل إلى حالة موعظة في التطرف حين ينادي على الفقراء والضعفاء بأنه يجب عليهم أن يساعدوا المجتمع على أن يتخلص منهم، يقول: «الضعفاء العجزة يجب أن يُقننوا! هذا هو أول مبدأ من مبادئ حُبنا للإنسانية! ويجب أيضاً أن يُساعدوا على هذا الفناء».

نيتشه كان الأجرأ والأقوى والأوضح والأكثر تعبيراً عن الفلسفة الغربية، وكانت فلسفته متناسقة مع مبادئه، لأنه ببساطة أعلن «موت الإله» وكان يرفض تماماً أن يبقى في الوجدان الإنساني بقايا من القيم التي تتحدث عن الإنسانية والرحمة والأخلاق، لقد كان يرفض ذلك تماماً ويطلق عليه «ظل الإله» أي الآثار والشوائب التي بقيت في حياة البشر حين كانوا يتصورون وجود إله.

من المهم أن يعلم المسلمون، بل كل المؤمنين بإله، أن نيتشه أصابه الجنون قبل أن

(١) انظر: د. عبد الوهاب المسيري: العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، ١٥١/٢: ١٥٣.

يموت. وإن في ذلك لعبرة.

عبرة يبدو أن الشاعر والناقد الإنجليزي الشهير ت. س. إليوت^(١) استلهمها، فاعتبر أن البديل عن الإيمان بالإله هو أن يتحول الإنسان إلى دموي مدمر ومفجر للحروب، قال: «إن لم تتخذ لنفسك إلهًا، فلا بد أن تقدم احتراماتك لهتلر وستالين»^(٢).

٣- ثمة نتيجة ثالثة يصل إليها من لا يؤمن بالله واليوم الآخر، تلك هي ذلك النموذج العبثي المهمل، الذي لا يعنيه أي شيء، لا يهتم أن يتحلى بقيمة أو معنى، ولا يفكر في أن يكون له هدف ورسالة، وليس شيء يمكن أن يُمثل له قداسة أو رمزا.

هذا الصنف الثالث هو الوجه الآخر للمصنف الثاني غير أنه كان أكثر «مسألة» مع الحياة من حوله فلم يدخل معركة الأنياب والمخالب والأظافر. كما كان الوجه الآخر للمصنف الأول غير أنه كان أكثر «كسلًا» فلم يهتم لأن يفكر في معنى الحياة ولا فلسفتها ولا ما قبلها ولا ما بعدها.

الإيمان وحده هو الذي يصوغ نظرة جميلة لهذا الكون، وهذه الحياة.

نظرة ترسل بالرحمة لكل كائن على هذه الأرض «من لا يرحم لا يُرحم»^(٣)، حتى عند الذبح يجب أن تكون رحيمًا «وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة»^(٤).

نظرة ترحم الصغير، وتوقر الكبير، «ليس منا من لم يرحم صغيرنا ويعرف شرف كبيرنا»^(٥).

(١) توماس ستيرنز إليوت (T. S. Eliot) (١٨٨٨ - ١٩٦٥) من أشهر الشعراء والنقاد الإنجليزي، فاز بجائزة نوبل في الأدب عام ١٩٤٨م.

(٢) صمويل هنتنجتون: صدام الحضارات، ترجمة طلعت الشايب، دار سطور، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٩٩م. ص ١٥٨.

(٣) متفق عليه. البخاري (٥٦٥١)، ومسلم (٢٣١٨).

(٤) مسلم (١٩٥٥).

(٥) أبو داود (٤٩٤٣) والترمذي (١٩٢٠) وقال: حسن صحيح، وهذا لفظ الترمذي. وصححه الألباني في التعليق عليها.

نظرة رحمة وعطف على الفقراء والضعفاء واليتامى والمساكين والأرامل والثكالى والشيوخ.

الدنيا - في هذه العين - هي الإصلاح بين الناس، والمشي في قضاء حوائجهم، عيادة المريض وصلة الرحم، مواساة المحتاج، وعون المكروب، والإحسان إلى الجار، و... و... و.....

نظرة لا ترى الدنيا وحدها، ولكن ترى من خلفها عالماً آخر أكثر رحابة وجمالاً وسعادة لمن استطاع إصلاح هذه الدنيا ونشر القيم والمبادئ فيها.. حتى وإن لم يستفد منها هو، لأنها نظرة تورث فعل الخير ولو لم يكن ثمة مقابل، حتى ولو انتهت كل هذه الحياة؛ «إن قامت الساعة وبيد أحدكم فسيلة، فإن استطاع أن لا يقوم حتى يغرسها فليفعل»^(١).

نظرة لا يمكن أن يصيبها توتر أو قلق أو اكتئاب.. ولا يمكن أن تفكر في الهروب أو الانتحار، لأن الرزق مضمون عند الله ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦] وكذلك العمر مضمون «لن تموت نفس حتى تستوفي رزقها وأجلها»^(٢).

فإذا أصابتها الدنيا، لم ينسفها الندم والحسرة لتقول: «لو أني فعلت كان كذا وكذا»^(٣) بل تعلم في يقين مطمئن أنه ﴿لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ٥١].. قائلة في ثبات وقور «اللهم أجرني في مصيبي وأخلف لي خيراً منها»^(٤).

الإيمان وحده هو الطريق إلى السعادة في الدنيا، وإلى السعادة في الآخرة.

نحن في حاجة إلى الإيمان لكي نشعر بطعم الحياة الهادئة التي لا تتزلزل حين المصيبة، ولا تصيبها السكته القلبية من الفرح، لأننا سنؤمن أنها طالمت أم قصرت فهي ستتهدى حتماً.

(١) رواه أحمد (١٣٠٠٤)، والبخاري في الأدب المفرد (٤٧٩). وقال شعيب الأرنؤوط في التعليق على مسند

أحمد: إنساده صحيح على شرط مسلم، وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد.

(٢) رواه ابن ماجه (٢١٤٤)، وصححه الألباني في التعليق على سنن ابن ماجه

(٣) رواه مسلم (٢٦٦٤).

(٤) رواه مسلم (٩١٨).

﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَهُوَ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعٌ الْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢١﴾ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ [الحديد: ٢٠-٢٣].

نحتاج للإيمان لكي نتحرر من الخوف.. لأننا سنخاف من الله وحده..

﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمَسْسَهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَلِكَمُ الشَّيْطَانُ يَجْعَلُ الْوِلْيَاءَ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ [آل عمران: ١٧٣-١٧٤].

نحتاج للإيمان لكي نكون بشرا تمتلئ حياتنا بالتراحم والتعاطف والتقدير والتكافل والمساعدة.. فالدنيا كلها أقل من أن نتقاتل عليها فننسى في صراعنا هذا معاني الرحمة والرفق والعدالة والإحسان.

﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سَخِرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ وَلَوْ لَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِيَبْتَغِيَهُمْ مِنْ فَضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِيُبَيِّنَ لَهُمْ آيَاتِهِ وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَكَبَّرُونَ ﴿٣٤﴾ وَرُخْرَفًا وَإِنَّ كُلَّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعٌ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾ [الزخرف: ٣٢-٣٥].

لكي نعمل الخير دون انتظار الشكر ودون طلب الأجر.. نفعله لأنه خير؛ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا مَا كُنْتُمْ تُسَلِّمُونَ وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الحج: ٧٧].

لكي نرى جمال الكون المتناغم الهادئ، لا هدير معركته الدامية.

﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأْتَمَا بَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرُّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾

[الأنعام: ١٢٥].

لن أقول الآن: لكي ندخل الجنة، إنما أريد أن أثبت أن «من لم يدخل جنة الدنيا لن يدخل جنة الآخرة» كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية^(١).

وجنة الدنيا هي الإيمان.

الإيمان.. هو القادر على صناعة حياة رائعة.. ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْتَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

وخروج الإيمان من القلب، يعني نار الآخرة بعد الاكتواء بكل نيران الدنيا وهو موهما وقلقها ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾

[طه: ١٢٤].

الإيمان من أساسيات الحياة، أو بعبارة المؤرخ الأمريكي ول ديورانت^(٢)، «ضرورة حضارية»، يقول: «من الضروري أن يكون بين الناس بعض الاتفاق في العقائد الرئيسية وبعض الإيمان بما هو كائن وراء الطبيعة، أو بما هو بمثابة المثل الأعلى المنشود، لأن ذلك يرفع الأخلاق من مرحلة توازن فيها بين نفع العمل وضرره إلى مرحلة الإخلاص للعمل ذاته، وهو كذلك يجعل حياتنا أشرف وأخصب على الرغم من قصر أمدنا قبل أن يخطفها الموت»^(٣).

(١) نقل ذلك عنه تلميذه الإمام ابن القيم: الوابل الصيب من الكلم الطيب، ص ٦٧.

(٢) ول ديورانت (Will Durant): (١٨٨٥-١٩٨١م) واحد من أشهر وأهم المؤرخين في العصر الحديث، له العديد من المؤلفات القيمة منها: (قصة الفلسفة)، و(دروس التاريخ)، و(أبطال التاريخ)، و(العقول والأفكار الكبيرة في كل العصور)، ولكن يظل أعظم ما كتب هو موسوعته الشهيرة (قصة الحضارة) التي تقع في ٤٢ مجلدًا - في نسختها العربية - والتي عكف على تأليفها لمدة أربعين سنة، ويتميز ديورانت بأنه مفكر إنساني متسامح واسع الأفق وغير متعصب. ويمكن للقارئ أن يرى دليلا على هذا في الجزء الثالث عشر من «قصة الحضارة» الذي عرض فيه لتاريخ الحضارة الإسلامية.

(٣) ول ديورانت: قصة الحضارة، ٧/١.

الإيمان.. اليقين

والإيمان الذي نعنيه والذي يستطيع تغيير الحياة ليس أي إيمان، وليس هو ذلك الشيء الذي يعتقده كثير من الناس، ليس المجادلة الكلامية التي تحفل بها كتب علم الكلام والجدل، ليس أن يكتب في الأوراق الشخصية كلمة «مسلم».. إنه الإيمان الذي يعني اليقين، إيمان يخلو من الشك والتردد، ويرتفع عن أن يباع ويشترى، ويخرج عن دائرة المساومات، فالمؤمن حقاً هو الذي «يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار»^(١) كما قال حبيبنا ﷺ في تشبيهه بليغ يعبر عن معنى اليقين.

يقول ابن القيم: «اليقين روح أعمال القلوب التي هي أرواح أعمال القلوب التي هي من أعمال الجوارح، وهو حقيقة الصديقية، وهو قطب هذا الشأن الذي عليه مداره»^(٢).

هذا هو الإيمان الذي نعنيه، واليقين الذي نريد أن نصل إليه، أو نلتمس منه.. اليقين الذي تتناثر معه كل الشكوك وكل الهموم وكل المشكلات.. اليقين الذي يجعلك تعبد الله كأنك تراه.. تحبه وتحشاه كأنك تراه.. تستحي منه كما تستحي من الرجل الصالح من قومك.

قال الجنيد: اليقين هو استقرار العلم الذي لا ينقلب ولا يحول ولا يتغير في القلب. وقال ابن عطاء: على قدر قربهم من التقوى أدركوا من اليقين^(٣).

هذا اليقين هو السعادة.. فالسعادة شعور نفسى ينبع في داخل النفس ولا يأتي إليها من خارجها، كما أنه لا يتوفر بالإمكانات المادية وسبل الراحة..

إن وجود اليقين في القلب، يرسل فيه نبضات السعادة ليضخها إلى كل أنحاء النفس

(١) متفق عليه. البخاري (١٦)، ومسلم (٤٣).

(٢) ابن القيم: مدارج السالكين ٢/٣٩٧.

(٣) المصدر السابق ٢/٣٩٨.

البشرية. ألا ترى أنك لو امتلكت اليقين في الله القوي القدير العظيم... الودود الغفار الرحمن... المعز المذل المهيمن.. السميع البصير، ترى أنك امتلكت حقيقة نفسك وحقيقة الكون وحقيقة الحياة؟؟

حينما تتحرك في الحياة معتمدا على قوة فاهرة قادرة جبارة عظيمة، وهى في ذات الوقت ترحمك وتمميك وتحفظك وترعاك، تملك إعزازك وتملك إذلالك أو تملك إعزازك، وإذلال من يعاديك، لأنها تهيمن على كل هذا الكون وكل ما فيه وكل من فيه... حينما تتحرك وفي صدرك هذا الشعور، هل تستطيع الدنيا كلها أن تنال من قوتك واعتزازك بنفسك وثباتك على الحق؟؟ هل تستطيع الدنيا كلها وكل من فيها وما فيها أخذ حبة من رزقك أو لحظة من عمرك؟؟

الشعور بأنك تعيش تحت لواء الحق، وفي رعاية الله.. شعور يعنى: السعادة وراحة البال والاطمئنان.

قال النهر جوري: إذا استكمل العبد حقائق اليقين صار البلاء عنده نعمة والرخاء عنده مصيبة^(١).

اليقين بأن هناك آخرة هى بالنسبة للدنيا كالبحر بالنسبة للقطرة فيه، القطرة التى سيخرج بها إصبعك إذا أدخلته في البحر، كما قال حبيبتنا ﷺ «ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم أصبعه في اليم فلينظر بم يرجع»^(٢).

هذا اليقين يحميك من أثر كل كارثة في هذه الدنيا، كما يزهديك في كل شيء سيأتى بالحرام، ذلك أن هناك ما هو أكثر وأفضل منه في الآخرة.

ما لذى يمكن أن يعيقك أو يخيفك أو يقلقك في كل هذه الحياة، إذا كان في قلبك هذا اليقين؟

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «اليقين الإيمان كله»^(٣).

(١) ابن القيم: مدارج السالكين ٢/ ٤٠٠.

(٢) رواه مسلم (٢٨٥٨).

(٣) البخاري ٧/١.

«اليقين بالآخرة هو مفرق الطريق بين من يعيش بين جدران الحس المغلقة، ومن يعيش في الوجود المديد الرحيب. بين من يشعر أن حياته على الأرض هي كل ما له في هذا الوجود، ومن يشعر أن حياته على الأرض ابتلاء يمهد للجزاء، وأن الحياة الحقيقية إنما هي هنالك، وراء هذا الحيز الصغير المحدود»^(١).

«اليقين أن لا تُرْضِي الناس بسخط الله، ولا تحمد أحدًا على رزق الله، ولا تلوم أحدًا على ما لم يؤتك الله، فإن رزق الله لا يسوقه حرص حريص، ولا يرده كراهة كاره، وإن الله بقسطه وحلمه وعدله جعل الروح والفرح في اليقين والرضا، وجعل الهم والحزن في الشك والسخط»^(٢).

«وهو من الإيمان بمنزلة الروح من الجسد، وبه تفاضل العارفون، وفيه تنافس المتنافسون، وإليه شمر العاملون. وعَمَلُ القومِ إنما كان عليه، وإشاراتهم كلها إليه، وإذا تزوج الصبر باليقين وُلِدَ بينهما حصول الإمامة في الدين ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْتَدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤].

وخص سبحانه أهل اليقين بالانتفاع بالآيات والبراهين ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ﴾ [الذريات: ٢٠]. وخص أهل اليقين بالهدى والفلاح من بين العالمين فقال: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَيَآخِرَةَ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ٤-٥].

وأخبر عن أهل النار بأنهم لم يكونوا من أهل اليقين ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُستَيْقِنِينَ﴾ [الجاثية: ٣٢]^(٣).

(١) سيد قطب: في ظلال القرآن، ١/ ٤١.

(٢) ابن القيم: الفوائد، ص ١٤٧.

(٣) ابن القيم: مدارج السالكين ٢/ ٣٩٧.

لماذا نحتاج إلى اليقين؟

وقبل أن نخطو في طريق تثبيت الإيمان وترسيخه في قلوبنا، أو - بلفظ آخر - الوصول إلى هذا اليقين، فلا بد أن نعرف منتهى الطريق، ما الذي سيثمره هذا المجهود؟ وما مقدار التغيير الذي سيحدث في النفس وفي الكون وفي الحياة بعد الوصول إلى «الإيمان الراسخ» أو «اليقين».

للحصول على السعادة:

على نحو ما سبق وذكرنا، فالحياة كلها والكون كله بما فيه ومن فيه ليس أكثر من نظرتك أنت إليه.. هذه النظرة والتصور الذي بداخلك هو ما يصنع شعورك تجاه نفسك وتجاه الكون والحياة والناس.

إذا أردت أن تتشأم، ستجد كل شيء أمامك يساعدك على هذا التشاؤم، ويدعم هذه النظرة السوداوية إليه، على حين أنه إذا انتهت لك مشكلة واحدة فألقت في نفسك شعاع الأمل، وتسرب هذا الأمل إلى نظرتك.. ستجد الكون كله يدعم عندك هذا الأمل ويقويه.

الكون كله، والحياة كلها، ليست إلا نظرتك أنت إليها.

وهذه النظرة تصدر أصلا من داخل نفسك البشرية، فلن تتغير أبدا بتغير الإمكانيات والظروف ووسائل الراحة.. فكل هذه الأشياء مجرد طلاء يوحى لمن ينظر إليك من بعيد بأنك سعيد أو تعيس.. مطمئن أم مضطرب.. مرتاح البال أم متوتر وقلق، لكنها لا تصنع هذا الشعور.. لأن هذا الشعور يصدر من داخلك أنت.

وهذه حقيقة كونية يثبتها الكون كل يوم، وكل ساعة.. ولا يمكن أن لا تكون قد سمعت بمنتحر كره الحياة وفضل الخروج منها - برغبته وإرادته - رغم ما يبدو للناس من سعادته وغناه وتوفر سبل الراحة له.

وكذلك الفقير الذي يعيش مكدودًا طول النهار، وربما طول الليل.. لكنه يتمتع براحة بال وهدوء واستقرار يجسده عليه الأغنياء.

والأرقام خير دليل، وقد اتضح أنه لا علاقة بين مستوى دخل الفرد وبين معدلات الانتحار في العالم، فدولة مثل لوكسمبورج التي تحتل المركز الأول في مستوى دخل الفرد، هي نفسها التي تحتل المركز الخامس والعشرين في قائمة أعلى معدلات الانتحار في العالم. وأمريكا التي تحتل المركز الثاني في مستوى دخل الفرد، تحتل كذلك المركز الثالث والأربعين في قائمة أعلى معدلات الانتحار، وقبل أمريكا بخطوتين تأتي النرويج في المركز الحادي والأربعين في قائمة معدلات الانتحار، رغم أنها في المركز الرابع عالمياً في مستوى دخل الفرد، ورغم أن سويسرا في المركز الخامس عالمياً في مستوى دخل الفرد، إلا أنها أيضاً في المركز التاسع عشر في معدلات الانتحار.

ورغم أن النيجر هي الدولة الأكثر فقراً في العالم إلا أنها تحتفي من قائمة معدلات الانتحار، وتحتفي كذلك سيراليون من قائمة المتحجرين، بينما هي قبل النيجر مباشرة في قائمة الدول الأكثر فقراً، وكذلك غينيا بيساو وبوركينا فاسو ومالي، وهذه هي الدول الأفقر في العالم، ولكن لا وجود لها في قائمة معدلات الانتحار^(١).

فصناعة السعادة إذن لا بد أن تنبع من صناعة نظرتك لنفسك وللكون وللحياة، وإذا أردت أن تكون سعيداً.. فأنت بلا شك في حاجة إلى تغيير زاوية النظر، تغيير القناعات والأفكار المتوارثة.

وهذه النصائح البسيطة هي الهدف الأكبر الذي حاولت كتب (السعادة) وكتّابها في الغرب أن يفرسوها في نفس الإنسان هناك، كي يتخلص من العناء والاضطراب والقلق وأمراض العصر المادى الشرس.

ومن أشهر الكتب في هذا المجال كتب (دع القلق وابدأ الحياة) و (كيف تكسب الأصدقاء وتؤثر في الناس؟) لدليل كارنيجي، وهو كاتب عالمي في هذا المجال، لكن

(١) مأخوذ من مقارنة قائمة الدول الأعلى في دخل الفرد، بقائمة الدول الأعلى في نسب المتحجرين، من خلال الموسوعة الحرة «ويكيبيديا».

العجيب والغريب أن هذا الرجل الذي صاغ للناس قواعد السعادة تقول بعض المصادر أنه مات متحرراً!!

وسواء صححت هذه المعلومة أم لا، فإن الصحيح بيقين أن مجرد المعرفة بطرق السعادة وقواعدها لا تفيد شيئاً، لأنها معرفة نظرية ليست أكثر، أو هي معلومات متراكمة داخل العقل والتفكير.. تنطلق من العقل لا من القلب، مستقرة في الرأس لكنها لا تستقر في الصدر.

لماذا؟؟ لأنها ليست عقيدة.. ليست مغروسة داخل القلب، لا تتبع منه فتستطيع حينئذ أن تغير نظرتك للكون وللحياة.. مجرد معرفة نظرية ليست أكثر، قد تستفيد منها في بعض الأمور في الحياة.. لكنها لا يمكن أن تغيرك أنت في أعماقك.

إن هذا هو ما عبر عنه بوضوح وببساطة الجغرافي القديم سترابو حين قال منذ ألفي سنة تقريباً: «إنك في معاملتك لحشد من النساء، على أقل تقدير، أو معاملتك لأية مجموعة من الناس اجتمعت كما اتفق، لا تستطيع بالفلسفة أن تؤثر فيهم، إنك لا تستطيع أن تؤثر فيهم بالعقل أو أن تقنعهم إقناعاً بضرورة الوفاق والورع والإيمان، كلاً، بل لا بد لهم من (الدين) أيضاً»^(١).

هنا نبدو في حاجة إلى الدين، إلى الإسلام الذي يصنع الإيمان بهذه النصائح البسيطة المعروفة، فهو يصنع الإيمان.. بمعنى أنه يصنع العقيدة المغروسة والثابتة في داخل القلب.. وهي هنا بالفعل تستطيع تغيير نظرتك للحياة.. لتحصل على السعادة في تلقائية. اندهش الشيخ محمد الغزالي ذات مرة حين قرأ كتاب (دع القلق وابدأ الحياة) لدليل كارنيجي، حين رأى أن كل المبادئ التي وضعها كارنيجي في كتابه هي مبادئ إسلامية جاء بها رسول الله ﷺ منذ أكثر من ألف سنة، فقرر أن «يؤسلم» الكتاب، فأخرج كتابه (جدد حياتك) الذي كان يعلق فيه على مقولات كارنيجي بالآية والحديث وأقوال أعلام الإسلام.

ولذلك بدأ الإسلام بإعادة صياغة هذه النفس البشرية، وليس إعادة صياغة الظروف والملابسات.. وحين تمت صناعة الشخصية المسلمة، نزلت الآيات والأحكام التي تصنع الظروف والملابسات.. أليس شيئاً مثيراً للتأمل أن يقضى رسول الله ﷺ أكثر من نصف عمره الدعوي محاولاً تثبيت كلمة (لا إله إلا الله) داخل النفوس؟؟

من المثير أيضاً أن الإسلام لم يغير «الشخصية الجاهلية» إلى «شخصية مسلمة» بناءً على معرفة نظرية، بل من خلال إيمان عميق ويقين صادق.

إن فشل المعرفة النظرية في صناعة التغيير الحقيقي أمر تكشّف لعلماء التنمية البشرية، والملاحظ لكتب السعادة يلحظ بوضوح أنها تطورت من تقديم نصائح وأساليب مبتكرة للإنسان، كما في كتب ديل كارنيجي مثلاً (وهو توفي منذ نصف قرن) إلى مرحلة أخرى، وهي «زرع قناعات» جديدة داخل النفس، ولذلك فهي تحاول «صناعة الإيمان» ولكنه الإيمان بالنفس وطاقاتها العظيمة، والإيمان بالعقل وقدراته الهائلة الكامنة، والإيمان بأنك تستطيع، حتى إن اسم العلم الذي غزا العالم وانتشر واشتهر كان واضحاً وهو «البرمجة اللغوية العصبية» (NLP)، وهو علم يستهدف إعادة «برمجة» العقل البشري.

الإيمان هو كلمة السر، غير أن الإسلام يطلب بالإيمان بأمرين تحديداً: الله.. واليوم الآخر..

الله.. واليوم الآخر، هذان العنصران هما أصل العقيدة الإسلامية، وهما أصل السعادة..

الإيمان بالله -وليس مجرد المعرفة العقلية بوجوده- هو الذي يجر الإنسان من كل همٍّ ومن كل غمٍّ.. لأنه يؤمن أن الله لا يُقَدَّر له إلا الخير، فهو أرحم به من الأم بولدها.

هو الذي يجر الإنسان من كل خوف ومن كل ذل ومن كل ضعف، لأنه يؤمن بأن الله فوق كل قوة ومصدر كل عزة وقوة كل ضعيف.

هو الذي يخفف عن الإنسان ضغوط الحياة ومشاكلها المتشعبة المتراكمة، لأنه يؤمن أن الله يُيسِّر الرزق، ويعطى الفضل، ويسبغ النعم.

هو الذي يزرع الإقدام والقوة والشجاعة في داخل النفس لأنه؛ يؤمن أنه في رعاية الله وفي حفظ الله وتحت عين الله.

والإيمان باليوم الآخر، هو الذي يكبح عند الإنسان جماح الطمع والانكباب على الدنيا؛ لأنه يؤمن أن في الآخرة ما هو خير من هذا وأفضل.

وهو الذي يمنح الصبر على البلاء والضراء.. لأنه - مهما كان - بلاء قليل في دنيا ستزول، وستأتي دار لا بلاء فيها.

فلهذا قد صارت المعادلة بسيطة: دنيا قليلة ستزول، وهي تحت هيمنة الله العلي العظيم.

من أين تأتي الهموم والغموم والقلق إذا؟؟

واسمع هذه القصة اللطيفة التي تبين الفارق الضخم في طبيعة وأثر النظرة إلى الكون يحكيها ر. ف. بودلي^(١) تحت عنوان «عشت في جنة الله» قال:

«في عام ١٩١٨ أوليت ظهري للعالم الذي عرفته طيلة حياتي، ويممت شطر إفريقية الشمالية الغربية، حيث عشت بين الأعراب في الصحراء، وقضيت هناك سبعة أعوام، أتقنت خلالها لغة البدو، وكنت أرتدي زيهم، وأكل من طعامهم، وأتخذ مظاهرهم في الحياة، وغدوت مثلهم أمتك أغنامًا، وأنام كما ينامون في الخيام، وقد تعمقت في دراسة الإسلام حتى أنني ألقت كتابًا عن محمد ﷺ عنوانه «الرسول» وقد كانت تلك الأعوام التي قضيتها مع هؤلاء البدو الرُّحل من أمتع سِنِّي حياتي وأحفلها بالسلام والاطمئنان والرضى بالحياة. وقد تعلمت من عرب الصحراء التغلب على القلق، فهم - بوصفهم مسلمين - يؤمنون بالقضاء والقدر، وقد ساعدتهم هذا الإيمان على العيش في أمان، وأخذ الحياة مأخذًا سهلًا هينًا.

(١) ر. ف. بودلي: (رونالد فيكتور بودلي R. V. Bodley) كولونيل بالجيش البريطاني، عمِلَ في وحدة الجيش البريطاني بالعراق، والأردن ومسقط، وعندما ترك الخدمة ذهب ليعيش بين عرب الصحراء، وكتب كثيرًا عن الصحراء وعن الشرق، وأشهر كتبه: (الرسول؛ حياة محمد = The messenger; the life of Mohammed)، وهو مترجم للعربية، كما له أعمال أخرى. وكتابه (الرسول) من الكتب التي سمعت لتحسين صورة النبي (صلى الله عليه وسلم) عند الغربيين، لكنه حفل بالعديد من الأخطاء والتناقضات.

فهم لا يلقون أنفسهم بين برائن الهم والقلق على أمر، إنهم يؤمنون بأن ما قُدِّر يكون، وأنه لا يصيب الفرد منهم إلا ما كتب الله له، وليس معنى ذلك أنهم يتواكلون، أو يقفون في وجه الكارثة مكتوفي الأيدي، كلا، ودعني أضرب مثلاً لما أعنيه:

هبّت ذات يوم عاصفة عاتية، حملت رمال الصحراء، وعبرت بها البحر الأبيض المتوسط، ورمّت بها وادي الرون في فرنسا، وكانت العاصفة حارة شديدة الحرارة، حتى أحسست كأن شعر رأس ينتزع من منابته، لفرط وطأة الحر، وأحسست من فرط القيظ كأنني مدفوع إلى الجنون، ولكن العرب لم يشكوا إطلاقاً، فقد هزوا أكتافهم، وقالوا كلمتهم المأثورة: (قضاء مكتوب). ولكنهم ما إن مرت العاصفة حتى اندفعوا إلى العمل بنشاط كبير، فذبحوا صغار الخراف قبل أن يودي القيظ بحياتها، ثم ساقوا الماشية إلى الجنوب نحو الماء، فعلموا هذا كله في صمت وهدوء دون أن تبدو من أحدهم شكوى... قال رئيس القبيلة: «لم نفقد الشيء الكثير، فقد كنا خلقاء بأن نفقد كل شيء، ولكن حمداً لله وشكراً، فإن لدينا نحو أربعين في المائة من ماشيتنا، وفي استطاعتنا أن نبدأ بها عملنا من جديد»^(١).

هذا هو ببساطة (الإيمان) أو - بمعنى أدق - (حقيقة الإيمان) أو (اليقين).

ولأنه إيمان ويقين، فلا بد أن ينبع من داخل القلب نفسه، فيؤثر على نظرة الإنسان للحياة ليعطيه السعادة.

كان رسول الله ﷺ يعبر عن هذا المعنى، معنى انبعاث السعادة من القلب بقوله «ألا وإن في الجسد لمضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب»^(٢).

ولأن الله تبارك وتعالى هو الذي خلق الإنسان، وهو العليم الخبير، لن يوجد إيمان فعّال يستطيع أن يغير حياة البشر مثل الإيمان بالله وباليوم الآخر. لا الإيمان بالنفس أو العقل أو الطاقات والقدرات كافٍ لأن بصوغ الحياة التي يتمناها البشر، ربما لا يعلم

(١) من كتابه (wind in the saharaa). نقل عن: ديل كارنيجي: دغ القلق وابدأ الحياة، ص ٣٠٣: ٣٠٥.

(٢) متفق عليه: البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩).

الكثيرون أن رئيس الاتحاد العالمي للبرمجة اللغوية العصبية، الأمريكي الجنسية، قد أسلم^(١).

إن هذه المعلومة بحد ذاتها كافية لأن ندرك أن الإيمان الحقيقي هو الإيمان الإسلامي، وبغير هذا لن تكون السعادة في متناول اليد. ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾

[الملك: ١٤].

لأنه ضرورة:

ونحتاج لليقين لأنه ضرورة، هذا ليس اكتشافا اكتشفه العلماء والمفكرون، بقدر ما هو حاجة ملحة ونداء ضروري، فالنفس البشرية بطبيعتها مخلوقة على أنها تسكن إلى قوة قاهرة قادرة.

وقد عرض ول ديورانت صاحب موسوعة (قصة الحضارة) لأمر الدين - بأسلوبه الفلسفي الممتع والمهتم برصد الشذوذ، ثم الانطلاق منها لإثبات القاعدة - فاستطاع أن يجمع خمس حالات لأناس في أدغال إفريقيا وأمريكا والإسكيمو لا يبدو أن لهم ديناً، ولم تُرصد لهم عبادات «معروفة». غير أنهم يعترفون باحتمال وجود إله، أو يؤمنون بنوع معين من الآلهة.

وإذا كان ديورانت - بما هو معروف عنه من الدأب العلمي والتقصي - لم يأت إلا بخمس حالات من مجاهل التاريخ والجغرافيا، فهذا يؤدي بنا إلى أن نعلم أن الأصل في الإنسان التدين، واعتناق الدين ولو كان خُرَافياً. يقول ديورانت: «على أن هذه حالات نادرة الوقوع، ولا يزال الاعتقاد القديم بأن الدين ظاهرة تعم البشر جميعاً اعتقاداً سليماً؛ وهذه - في رأي الفيلسوف - حقيقة من الحقائق التاريخية والنفسية»^(٢).

وما قاله ديورانت يؤكد المقولة المنسوبة إلى المؤرخ الإغريقي بلوتارك: «لقد وجدت في التاريخ مدن بلا حصون، ومدن بلا قصور.. ومدن بلا مدارس.. ولكن لم توجد أبداً مدن بلا معابد».

(١) وذلك يوم يوم الأحد ١٥/٧/٢٠٠٧م، الموافق غرة شهر رجب ١٤٢٨هـ، في مملكة البحرين. والخبر منشور على موقع قناة العربية على الإنترنت بتاريخ الأحد ٨ رجب ١٤٢٨هـ - ٢٢ يوليو ٢٠٠٧م.
(٢) ول ديورانت: قصة الحضارة، ٩٨/١، ٩٩.

أى أن الإيمان والوصول إلى اليقين أو السعادة.. ليس فقط علاجاً لمشاكل الحياة ونكدها وهمومها، بل هو في ذات الوقت مطلب ينبع من داخل النفس ويلح عليها، وفراغ القلب من الإيمان هو في حد ذاته أزمة لا بد لها من حل.

يقول الإمام ابن القيم:

«في القلب شعث لا يلمه إلا الإقبال على الله، وفيه وحشة لا يزيلها إلا الأُنس بالله، وفيه حزن لا يذهب إلا السرور بمعرفته وصدق معاملته، وفيه قلق لا يسكنه إلا الاجتماع عليه والفرار إليه، وفيه نيران حشرات لا يطفئها إلا الرضا بأمره ونهيه وقضائه، ومعانقة الصبر على ذلك إلى وقت لقائه، وفيه فاقة لا يسدها إلا محبته والإنابة إليه، ودوام ذكره، وصدق الإخلاص له، ولو أُعطي الدنيا وما فيها لم تُسد تلك الفاقة منه أبداً»^(١).

إذن.. فهي غريزة، وطالما أنها غريزة، فلا بد لها من إشباع وإلا ساد حياة الإنسان الحيرة والقلق، مهما كان ما حوله من إمكانيات الراحة.. هذه الغريزة يُعبّر عنها في الإسلام بـ (الفطرة)، ومعنى الفطرة: الطبيعة التي خلق الله بها الناس ﴿فَطَرَتِ اللَّهُ النَّبِيَّ فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾، وهذه الفطرة أو الطبيعة الإنسانية أو الغريزة الإنسانية لا تستقيم ولا يمكن إشباعها إلا بهذا اليقين.. بهذا الإيمان.. بهذا الدين. وستظل هذه النفس تحتاج إلى هذا الإيمان في كل العصور وفي كل الأزمان، لأنها ستظل من مخلوقات الله.

﴿فَأَوَّمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيْمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠].

هذه الفطرة العميقة في نفس الإنسان، وهذا الشعور الملح بالاحتياج إلى القوة العليا القادرة القاهرة.. هو هذا العهد الذي أخذه الله من كل بنى آدم في فجر الخلق، قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٢] فهذا الشعور الملح، وهذا الاحتياج الحنون هو مثل شوق الغريب إلى وطنه، لأن الإنسان في

الأصل مخلوق على الفطرة التي تتسق مع الإسلام وتتجانس معه، ففي الحديث الشريف: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله: إني خلقت عبادي حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم»^(١). وفي حديث آخر: قال رسول الله ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة - وفي رواية: «على هذه الملة - فآبواه يهودانه ويُنصرانه ويُمجسانه..»^(٢).

يُخلص لنا أن هناك عهدًا من الله على فطرة البشر أن توحده، وأن حقيقة التوحيد مركوزة في هذه الفطرة؛ يخرج بها كل مولود إلى الوجود؛ فلا يميل عنها إلا أن يُفسد فطرته عاملٌ خارجيٌّ عنها! عامل يستغل الاستعداد البشري للهدى وللضلال. وهو استعداد كذلك كامنٌ تُخرجه إلى حيز الوجود ملابسًا وظروفًا.

إن حقيقة التوحيد ليست مركوزة في فطرة «الإنسان» وحده؛ ولكنها كذلك مركوزة في فطرة هذا الوجود من حوله - وما الفطرة البشرية إلا قطاع من فطرة الوجود كله، موصولة به غير منقطعة عنه، محكومة بذات الناموس الذي يحكمه - بينما هي تتلقى كذلك أصداؤه وإيقاعاته المعبرة عن تأثيره واعترافه بتلك الحقيقة الكونية الكبيرة..»^(٣).

وقد نُشر مؤخرًا كتاب عالمة الأديان البريطانية كارين أرمسترونج «قضية الإله» (The Case of God) في سبتمبر^(٤) ٢٠٠٩، والذي تقول فيه بوضوح بأن التجربة الإنسانية تثبت أن الإنسان «كائن ديني»، وبعده بشهرين في (نوفمبر ٢٠٠٩م) نشر كتاب الصحفي الإنجليزي نيكولاس واد، الذي جعل له عنوانًا موحيا «غريزة الإيمان» (The Faith Instinct)، وفيه يتحدث عن الإنسان مخلوق وداخله «جين» الله. وقبل نيكولاس واد كان دين هامر قد كتب كتابه الشهير الذي أثار زوبعة في وقته (سبتمبر ٢٠٠٤م) «الجين الإلهي» (The God Gene) لأنه قال بوجود جينات في جسم الإنسان هي المسئولة عن تعلقه بالروحانيات، وهو ما شكل صدمة للغرب الذي

(١) رواه مسلم (٢٨٦٥).

(٢) متفق عليه: البخاري (١٢٩٢)، ومسلم (٢٦٥٨).

(٣) سيد قطب: في ظلال القرآن ٣ / ١٣٩٤.

(٤) ترجم إلى العربية بعنوان «الله لماذا»، ونشرته دار سطور، القاهرة.

يستهلجن أن يكون الدين من طبيعة الإنسان^(١).

وكحال جميع الغرائز، لا يمكن كبتها أو تجاهل نذاتها المستمر، وإلا تحولت الحياة إلى عذاب حقيقي، وفي الآية الكريمة: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾ وهذا في الدنيا قبل الآخرة.. ففي الآخرة ﴿وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ﴿ قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسَيْتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى ﴿ وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى﴾ [طه: ١٢٤-١٢٧].

يقول الإمام ابن كثير في تفسير الضنك: «فلا طمأنينة له ولا انشراح لصدره، بل صدره ضيق حرج لضلاله وإن تنعم ظاهره ولبس ما شاء وأكل ما شاء وسكن حيث شاء، فإن قلبه ما لم يخلص إلى اليقين والهدى فهو في قلق وحيرة وشك».

بل ويلفت الإمام ابن كثير النظر إلى معنى في غاية العمق، معنى أن تتحول حياة الإنسان إلى ضنك؛ لأنه يعرف أن ما هو فيه من وسائل الراحة لن يدوم، فهو إما سيموت فيتركه، أو تأتي عليه مصيبة فتسلبه منه، «ويقال أيضًا: إن قوما ضللاً أعرضوا عن الحق وكانوا في سعة من الدنيا متكبرين، فكانت معيشتهم ضنكاً، وذلك أنهم كانوا يرون أن الله ليس مخلصاً لهم معاشهم من سوء ظنهم بالله والتكذيب. فإذا كان العبد يكذب بالله ويسيء الظن به والثقة به اشتدت عليه معيسته فذلك الضنك»^(٢). «والحياة المقطوعة الصلة بالله ورحمته الواسعة ضنك مهما يكن فيها من سعة ومتاع. إنه ضنك الانقطاع عن الاتصال بالله والاطمئنان إلى حماه، ضنك الحيرة والقلق والشك، ضنك الحرص والحذر؛ الحرص على ما في اليد والحذر من الفوت، ضنك الجري وراء بارق المطامع والحسرة على كل ما يفوت... إن طمأنينة الإيمان تضاعف الحياة طويلاً وعرضاً وعمقاً وسعة، والحرمان منه شقوة لا تعدلها شقوة الفقر والحرمان»^(٣).

ولقد كتب إيليا أبو ماضي قصيدة «الطلاسم»، وهي مثال حقيقي لحيرة من فقد الإيمان.

(١) كان العنوان التوضيحي للكتاب هذه العبارة «How Faith is Hardwired into our Genes» أي

«كيف أن الإيمان مستقر في جيناتنا».

(٢) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ٥/ ٣٢٣.

(٣) سيد قطب: في ظلال القرآن ٤/ ٢٣٥٥.

جئت، لا أعلم من أين، ولكنني أتيت
ولقد أبصرت قدامي طريقاً فمشيت
وسأبقى ماشياً إن شئت هذا أم أبيت
كيف جئت؟ كيف أبصرت طريقي؟
لست أدري!

أجدد أم قديم أنا في هذا الوجود؟
هل أنا حرّ طليق أم أسير في قيود؟
هل أنا قائد نفسي في حياتي أم مقود؟
أتمنى أنني أدري ولكن...
لست أدري!

وطريقي، ما طريقي؟ أطويل أم قصير؟
هل أنا أصعد أم أهبط فيه وأغور؟
أنا السائر في الدرب أم الدرب يسير؟
أم كلاًنا واقف والذهر يجري؟
لست أدري!

ليت شعري وأنا عالم الغيب الأمين
أتراني كنت أدري أنني فيه دفين؟
وبأتي سوف أبدو وبأتي ساكون؟
أم تراني كنت لا أدرك شيئاً؟
لست أدري!

أتراني قبلها أصبحت إنساناً سوياً
أتراني كنت محوّاً^(١) أم تراني كنت شيئاً؟
ألهذا اللغز حلّ أم سيبقى أبدياً
لست أدري. ولماذا لست أدري؟
لست أدري!

أيها القبر تكلم، وأخبرني يا رِمَامَ^(٢)
هل طوى أحلامك الموت وهل مات الغرام؟
من هو المائت من عام ومن مليون عام
أيصير الوقت في الأرماس^(٣) محوّاً؟
لست أدري!

إن يك الموت رقادا بعده صحو طويل
فلماذا ليس يبقى صحونا هذا الجميل؟
ولماذا المرء لا يدري متى وقت الرّحيل؟
ومتى ينكشف السّرّ فيدري؟..
لست أدري!

إن يك الموت هجوعاً يملأ النفس سلاماً
وانعتاقاً لا اعتقالاً وابتداءً لا ختاماً

(١) محوّاً: أي عدماً.

(٢) رِمَام: جمع رَمّة وهي العظام البالية.

(٣) الأرماس: جمع رَمَس، وهي القبر الذي يستوي مع الأرض ولا يرتفع عنها.

فلماذا أعشق النوم ولا أهوى الحماماً^(١)؟ ولماذا تجزع الأرواح منه؟..

لست أدري!

أوراء القبر بعد الموت بعث ونشور؟ فحياة فخلود أم فناء ودثور^(٢)؟

أكلام الناس صدق أم كلام الناس زور؟ أصحيح أن بعض الناس يدري؟

لست أدري!

إن أكن أبعث بعد الموت جثماناً وعقلاً أترى أبعث بعضاً أم ترى أبعث كلاً؟

أترى أبعث طفلاً أم ترى أبعث كهلاً ثم هل أعرف بعد الموت ذاتي؟

لست أدري!

يا صديقي، لا تعلقني بتمزيق الستور بعدما أقضي فعقلي لا يبالي بالقشور

إن أكن في حالة الإدراك لا أدري مصيري كيف أدري بعدما أفقد رشدي؟

لست أدري!

إنني أشهد في نفسي صراعاً وعراكاً وأرى ذاتي شيطاناً وأحياناً ملاكاً

هل أنا شخصان يأبى هذا مع ذلك اشتراكاً؟ أم تراني وأهمافياً أراه؟

لست أدري!

أنا لا أذكر شيئاً من حياتي الماضية أنا لا أعرف شيئاً من حياتي الآتية

لي ذات غير أني لست أدري ما هيته فمتى تعرف ذاتي كنه ذاتي؟

لست أدري!

إنني جئت وأمضي وأنا لا أعلم أنا لغز، وذهابي كمجيئي طلسم^(٣)

والذي أوجد هذا اللغز لغزٌ مبهم لا تجادل ذا الحجاً^(٤) من قال إنّي..

لست أدري!

(١) الحمام: الموت.

(٢) الدثور: الانقراض والانتهاه.

(٣) الطلسم: هي الشيء الغامض.

(٤) ذا الحجاً: ذا العقل والفتنة.

حلاوة الإيمان ولذة اليقين^(١)

على عكس حيرة المرتابين، تلك التي رأيناها على سبيل المثال في «طلاسم» إيليا أبي ماضي، فلقد سجل تاريخنا العظيم كلمات تتفجر بمعاني السعادة التي سالت من القلوب التي تشربت معنى اليقين.

يقول الإمام ابن القيم: «فإنه (أي القلب) لا نعيم له ولا لذة، ولا ابتهاج، ولا كمال، إلا بمعرفة الله ومحبته، والطمأنينة بذكره، والفرح والابتهاج بقربه، والشوق إلى لقائه، فهذه جنته العاجلة، كما أنه لا نعيم له في الآخرة، ولا فوز له إلا بجواره في دار النعيم في الجنة الآجلة، فله جنتان، لا يدخل الثانية منها إن لم يدخل الأولى». ثم ينقل لنا الإمام ابن القيم بعضاً من أقوال من استشعروا السعادة في القرب من الله تعالى.

«وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- يقول: إن في الدنيا جنة، مَنْ لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة.

وقال بعض العارفين: إنه ليمر بالقلب أوقات أقول: إن كان أهل الجنة في مثل هذا إنهم لفي عيش طيب.

وقال بعض المحبين: مساكن أهل الدنيا خرجوا من الدنيا وما ذاقوا أطيّب ما فيها. قالوا: وما أطيّب ما فيها؟ قال: حبة الله، والأنس به، والشوق إلى لقائه، والإقبال عليه، والإعراض عما سواه - أو نحو هذا الكلام.

وكل من له قلب حي يشهد هذا ويعرفه ذوقاً^(٢).

(١) لعل القارئ الكريم قد لاحظ أننا نستخدم لفظ (اليقين) تعبيراً عن قوة الإيمان، وهذا لكي نبتعد عن إشكالية الخوض في الإيمان الذي يقابله الكفر، وحدود قوة وضعف الإيمان، وهل من لا يستشعر هذه المعاني تنتفي عنه صفة الإيمان، وغيرها من الأمور التي مجالها كتب العقيدة.

(٢) ابن القيم: مدارج السالكين ١/ ٤٥٤.

ويحكى الإمام ابن القيم عن شيخه وأستاذه ابن تيمية الذي كان في اضطهاد من السلطة حتى سجن ومات في سجنه فيبدو شديد التعجب من أحوال شيخه، يقول: «عَلِمَ الله ما رأيت أحدًا أطيّب عيشًا منه مع ما كان فيه من ضيق العيش وخلاف الرفاهية والنعيم بل ضدها، ومع ما كان فيه من الحبس والتهديد والإرهاق، وهو مع ذلك من أطيّب الناس عيشًا، وأشرحهم صدرًا، وأقواهم قلبًا، وأسهرهم نفسًا، تلوح نضرة النعيم على وجهه، وكنا إذا اشتد بنا الخوف وساءت منا الظنون وضائق بنا الأرض أتيناها، فما هو إلا أن نراه ونسمع كلامه فيذهب ذلك كله وينقلب انشراحا وقوة ويقينا وطمأنينة، فسبحان من أشهد عباده جنته قبل لقائه وفتح لهم أبوابها في دار العمل، فأتاهم من روحها ونسيمها وطيبها ما استفرغ قواهم لطلبها والمساابقة إليها»^(١).

وكان من أحوال الإمام ابن تيمية حين سجنه أنه كان يردد تلك العبارات التي حفظها التاريخ ورددتها بعده كل مؤمن مضطهد: «ما يصنع أعدائي بي؟ أنا جنتي وبستاني في صدري؛ إن رحمت فهي معي لا تفارقني، إن حبسي خلوة وقتلي شهادة وإخراجي من بلدي سياحة. وكان يقول في محبسه في القلعة: لو بَدَلْتُ مِلءَ هذه القاعة ذهبًا ما عدلّ عندي شكر هذه النعمة. أو قال: ما جزيتهم على ما تسببوا لي فيه من الخير. وكان يقول في سجوده وهو محبوس: اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك ما شاء الله. وقال لي مرة: المحبوس من حبس قلبه عن ربه تعالى والمأسور من أسرّه هواه»^(٢).

وأنتشد الدكتور يوسف القرضاوى وهو في السجن الحربى في أيام اضطهاد عبد الناصر للإخوان المسلمين قصيدته النونية وهى أكثر من ثلاثمائة بيت منها:

ضع في يدي القيد أهب أضلعي	بالسوط ضع عنقي على السكين
لن تستطيع حصار فكرى ساعة	أو نزع إيماني ونور يقيني
فالنور في قلبي وقلبي في يدي	ربي، وربي ناصري ومعيني
سأعيش معتصمًا بحبل عقيدتي	وأموت مبتسمًا ليحيا ديني

(١) ابن القيم: الوابل الصيب ص ٦٧.

(٢) السابق

وفي موضع آخر يقول، حينما تم منع الكتب وقراءة القرآن في الزنازين:
 سُودُوا عَلَى الْبَابِ كَيْ أُخْلَوْا إِلَى كَتَبِي فِي الْكُتُبِ خَيْرَ خَلْدِينَ^(١)
 وَخَذُوا الْكِتَابَ فَإِنْ أُنْسِيَ مَصْحَفًا أَتْلُوهُ بِالترتيل والتلحين
 وَخَذُوا الْمَصَاحِفَ إِنْ بَيْنَ جَوَانِحِي قَلْبًا بَنُورٍ يَقِينُهُ يَهْدِينِي
 اللَّهُ أَسْعَدَنِي بِظُلِّ عَقِيدَتِي أَفِيَسْتَطِيعُ الْخَلْقُ أَنْ يُشَقُّونِي؟^(٢)

ولالإمام أبي حامد الغزالي، حجة الإسلام، كلام هو بحث في غاية الإمتاع في موضوع اللذة التي تغمر القلب الذي يعرف الله معرفة الإيمان واليقين، شرح فيه ما هي هذه اللذة، وكيف تحدث، ثم تدرج في الحديث عنها وشرح معناها وضرب الأمثلة لتقريب المعنى حتى وصل بمنطق سهل وأخاذ إلى أن لذة اليقين بالله هي أقوى اللذات جميعا، يقول:

«فصل في بيان أن أجَلَّ اللذات وأعلاها معرفة الله سبحانه والنظر إلى وجهه الكريم وأنه لا يُتَصَوَّرُ أن يُؤْثِرَ على ذلك لذة أخرى إلا من حُرِّمَ هذه اللذة».

اعلم أن اللذات تابعة للإدراكات، والإنسان جامع لجملة من القوى والغرائز، ولكل قوة وغريزة لذة. ولذتها في نيلها المقتضى طبعها الذي خلقت له^(٣)؛ فإن هذه الغرائز ما رُكِّبَتْ في الإنسان عبثا بل ركبت كل قوة وغريزة لأمر من الأمور هو مقتضاها بالطبع. فغريزة الغضب: خُلِقَتْ للتشفي والانتقام فلا جرم^(٤) أن لذتها في الغلبة والانتقام. وغريزة شهوة الطعام مثلا خُلِقَتْ لتحصيل الغذاء الذي به القوام فلا جرم أن لذتها في نيل هذا الغذاء، وكذلك لذة السمع والبصر والشم في الإبصار والاستماع والشم. فلا تخلو غريزة من هذه الغرائز عن ألم ولذة بالإضافة إلى مدركاتها. فكذلك في القلب غريزة تسمى النور الإلهي لقوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ﴾ [الزمر: ٢٢] وقد تُسَمَّى العقل، وقد تسمى البصيرة الباطنة، وقد تسمى نور الإيمان واليقين، وهذه

(١) خلدین: صديق

(٢) انظرها كاملة في ديوانه: «نفحات ولفحات».

(٣) نيلها المقتضى طبعها الذي خلقت له: أي أن لذة كل غريزة في الإنسان تتحقق بالحصول على ما يُشبعها على وفق الشيء الذي خلقه الله لها ليحقق إشباعها ومتعتها.

(٤) فلا جرم: بمعنى لا عَجَبَ

الغريزة حُلِّقَتْ لِئُعَلِّمَ بها حقائق الأمور كلها، فمقتضى طبيعتها المعرفة والعلم وهى لذتها كما أن مقتضى سائر الغرائز هو لذتها، وليس يخفى أن في العلم والمعرفة لذة، حتى إن الذي يُنسَب إلى العلم والمعرفة ولو في شيء خسيس يفرح به، والذي يُنسَب إلى الجهل ولو في شيء حقير يَغْتَمُّ به؛ فالعالم باللعب بالشطرنج -على خسته- لا يطيق السكوت فيه عن التعليم وينطلق لسانه بِذِكْر ما يعلمه. وكل ذلك لِقَرْط لذة العلم وما يستشعره من كمال ذاته به، فإن العلم من أخص صفات الربوبية وهى منتهى الكمال، ولذلك يرتاح الطبع إذا أُثني عليه بالذكاء وغزارة العلم؛ لأنه يستشعر عند سماع الثناء كمال ذاته وكمال علمه فيعجب بنفسه ويلتذ به.

ثم ليست لذة العلم بالحرارة والخياطة كلذة العلم بسياسة الملك وتدبير أمر الخلق، ولا لذة العلم بالنحو والشعر كلذة العلم بالله تعالى وصفاته وملائكته وملكوت السموات والأرض، بل لذة العلم بقدر شرف العلم، وشرف العلم بقدر شرف المعلوم؛ حتى إن الذي يعلم بواطن أحوال الناس ويُخبر بذلك يجد له لذة..

فهذا استبان أن ألد المعارف أشرفها، وشرفها بحسب شرف المعلوم، فإن كان في المعلومات ما هو الأجل والأكمل والأشرف والأعظم فالعلم به ألد العلوم لا محالة وأشرفها وأطيبها.

وليت شعرى هل في الوجود شيء أجل وأعلى وأشرف وأكمل وأعظم من خالق الأشياء كلها ومُكَمِّلها ومُزَيِّنها ومُبدئها ومُعِيدها ومُدَبِّرها ومُرَبِّبها؟ وهل يتصور أن تكون حَضْرَةٌ في الملك والكمال والجمال والبهاء والجلال أعظم من الحضرة الربانية التى لا يحيط بمبادئ جلالها وعجائب أحوالها وصف الواصفين؟

فإن كنت لا تشك في ذلك فلا ينبغي أن تشك في أن الاطلاع على أسرار الربوبية والعلم بترتب الأمور الإلهية المحيطة بكل الموجودات هو أعلى أنواع المعارف والاطلاعات وألذها وأطيبها وأشهاها، وأحرى ما تستشعر به النفوس عند الاتصاف به كمالها وجمالها، وأجدر ما يعظم به الفرح والارتياح والاستبشار.

وبهذا تبين أن العلم لذيد وأن ألد العلوم العلم بالله تعالى وبصفاته وأفعاله وتدبيره في

مملكته من منتهى عرشه إلى تخوم الأرضين.

فينبغي أن يُعلم أن لذة المعرفة أقوى من سائر اللذات، أعنى: لذة الشهوات والغضب ولذة سائر الحواس الخمس... وإنما تعرف أقوى اللذات بأن تكون مُؤثِّرة^(١) على غيرها؛ فإن المُخَيَّر بين النظر إلى صورة جميلة والتمتع بمشاهدتها وبين استنشاق روائح طيبة إذا اختار النظر إلى الصورة الجميلة عُلِمَ أنها ألدُّ عنده من الروائح الطيبة، وكذلك إذا حضر الطعام وقت الأكل واستمر اللاعب بالشطرنج على اللعب وترك الأكل فيعلم به أن لذة الغلبة في الشطرنج أقوى عنده من لذة الأكل...

ولذة معرفة الله تعالى ومطالعة جمال حضرة الربوبية والنظر إلى أسرار الأمور الإلهية ألدُّ من الرياسة التي هي أعلى اللذات الغالبة على الخلق، وغاية العبارة عنه أن يقال: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧] وإنه أعد لهم ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر^(٢).

(١) مؤثرة على غيرها: بمعنى مُفَضِّلة على غيرها.

(٢) الغزالي: إحياء علوم الدين، ٤/ ٣٠٧: ٣٠٩ (باختصار)



الباب الثاني كيف تصل إلى اليقين؟

﴿ منهاج السور المكية في تعريف الله للعباد. ﴾

﴿ التأمل يفضي إلى اليقين؟ ﴾

﴿ كيف نظر سلفنا الصالح إلى التأمل؟ ﴾

﴿ تحذير شديد ومهم.. ﴾

منهاج السور المكية

في تعريف العبادة بالله

لكى نصل إلى الطريقة المثلى التى نزرع بها اليقين في قلوبنا، فعلينا بتلقائية أن ننظر إلى منهاج رسول الله ﷺ الذي بدأ به دعوته، وكذا خصائص القرآن الكريم في سُورِهِ المكية التى نزلت لتخاطب الناس تُعرِّفهم بالله لكى تزرع فيهم -من خلال هذا الخطاب- الإيمان بالله واليقين فيه.

فإذا كان معروفاً أن النبي ﷺ أمضى في مكة أكثر من نصف عمر الدعوة لا يشغله إلا أن يؤمن الناس بالله ويوقنون بالآخرة، عرفنا مدى أهمية البداية من نفس هذه النقطة.. نقطة الإيمان بالله واليقين بالله، والاستسلام لأمر الله عن حب وطواعية.

تقول عائشة -رضي الله عنها: «أول ما نزل منه - أي القرآن - سورة من المفصل»^(١) فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا تاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام، ولو نزل أول شيء لا تشربوا الخمر لقالوا: لا ندع الخمر أبداً، ولو نزل لا تزونا لقالوا: لا ندع الزنا أبداً. لقد نزل بمكة على محمد ﷺ وإني لجارية ألعب: ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرٌ﴾ [القم: ٤٦]. وما نزلت سورة البقرة والنساء (الغنية بالأحكام والتشريعات) إلا وأنا عنده^(٢).

فكيف كانت السور المكية تخاطب الناس لتزرع فيهم هذا الإيمان وهذه العقيدة؟ من المهم أن نلاحظ أن القرآن المكي لم يعالج قضية العقيدة بشكل نظري.. إنما كان يعرضها ويعالجها بصورة يختلط فيها نداء العقل الواضح باستثارة الروح والنفس لتشاهد الأدلة على إبداع الله لهذا الكون وعلى أحقيته بهذه العبادة.

(١) المفصل من القرآن يبدأ من سورة ق وقيل غير ذلك. وسمى بذلك لقصر سوره وقرب انفصال بعضهن من بعض. (من تعليق د. مصطفى البغا محقق صحيح البخاري).

(٢) رواه البخاري (٤٧٠٧).

ولا نبالغ إذا قلنا: إن المحور الأساسي في القرآن المكي كان هو عرض خلق الله، وقدرته وإبداعه في الخلق، على عيون الناس ونفوسهم وعقولهم، إلى جانب الرد على شبهات الملحدين والمشركين، والترغيب والتثبيت للمؤمنين، والتهديد والتخويف للكافرين.

كان القرآن يوصل إلى الناس الإيمان بالله من خلال دفعهم إلى التأمل والتفكير في خلق الله في الكون، وفي النظر إلى التاريخ وكيف كانت الأمم تؤمن وتكفر، وفي النظر إلى أسماء الله تعالى وصفاته.

إن النظر في كون الله، وفي حركة التاريخ، وتأمل أسماء الله جل وعلا وصفاته، يرسل إلى القلب والعقل والروح في وقت واحد رسائل تمتلئ بالصفاء والوضوح والجمال.. رسائل لا تملك أمامها الفطرة المغروسة في نفس الإنسان إلا أن تستجيب لها وتشتاق إليها لولا ما قد يغلف القلب من جهل أو فساد.

«لقد كان القرآن الكريم يخاطب فطرة «الإنسان» بما في وجوده هو وبما في الوجود من حوله من دلائل وإجاءات.. كان يستنقذ فطرته من الركام؛ ويخلص أجهزة الاستقبال الفطرية مما ران عليها وعطل وظائفها؛ ويفتح منافذ الفطرة لتتلقى الموحيات المؤثرة وتستجيب لها»^(١)، وعامة فإن السور المكية تزخر بهذه المعاني واللمحات والتأملات، ثم التساؤلات الموحية أو المستنكرة.. ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ [المرسلات: ٥٠] ﴿فَأَنى تُضْرَفُونَ﴾ ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾... وهكذا.

فالقضية الأساسية للسور المكية هي إثارة تأمل الناس لكي يتفكروا من خلال عدة

عناصر:

- (١) التأمل في كون الله تعالى.
- (٢) التأمل في خلق النفس البشرية.
- (٣) التأمل في حركة التاريخ ومصائر الأقوام السابقين.

٤) التأمل - من خلال ما سبق- في أسماء الله تعالى وصفاته وذكر نعمه وآلائه ورحمته وعفوه وغفرانه وقدرته وقوته وحكمته...

ثم استعمال هذه العناصر في التأكيد والتدليل على الله، وعلى وجود اليوم الآخر، وما فيه من نعيم للمؤمنين، ومن عذاب للمشركين.

وإذا أردنا أن نأخذ مثالا على هذا المنهج في السور المكية، فلربما كان مثالا موقفا إذا حاولنا استكشاف سورة الأنعام- على سبيل المثال- فكل سورة في القرآن لها مذاقها الخاص - وهي مكية، وتكاد كل آية فيها تتفجر بمعاني القدرة على الخلق، وإبداع الخلق، ولفت الأنظار إليه.. ثم اللمسات واللمحات الإيمانية التي تذهب بالعقل والقلب والروح في وقت واحد نحو توحيد الله تبارك وتعالى.

وفي شرحه الموجز لسورة الأنعام يقول الشهيد سيد قطب: «إنها- في جملتها- تعرض حقيقة الألوهية».. تعرضها في مجال الكون والحياة، كما تعرضها في مجال النفس والضمير، وتعرضها في مجاهيل هذا الكون المشهود، كما تعرضها في مجاهيل ذلك الغيب المكنون.. وتعرضها في مشاهد النشأة الكونية والنشأة الحيوية والنشأة الإنسانية، كما تعرضها في مصارع الغابرين واستخلاف المستخلفين.. وتعرضها في مشاهد الفطرة وهي تواجه الكون، وتواجه الأحداث، وتواجه النعماء والضراء، كما تعرضها في مظاهر القدرة الإلهية والهيمنة في حياة البشر الظاهرة والمستكنة، وفي أحوالهم الواقعة والمتوقعة.. وأخيرا تعرضها في مشاهد القيامة...

وهي تأخذ بمجامع النفس البشرية، وتطوف بها في الوجود كله، وراء ينابيع العقيدة وموحياتها المستسرة والظاهرة في هذا الوجود الكبير... في ملكوت السماوات والأرض، تلحظ فيها الظلمات والنور، وترقب الشمس والقمر والنجوم. وترسح في الجنات المعروشات وغير المعروشات، والمياه الهاطلة عليها والجارية فيها؛ وتقف بها على مصارع الأمم الخالية، وآثارها البائدة والباقية، ثم تسبح بها في ظلمات البر والبحر، وأسرار الغيب والنفس، والحي يخرج من الميت والميت يخرج من الحي، والحبة المستكنة في ظلمات الأرض، والنطفة المستكنة في ظلمات الرحم، ثم تموج بالجن والإنس، والطير والوحش،

والأولين والآخرين، والموتى والأحياء، والحفظة على النفس بالليل والنهار..

إنه الحشد الكوني الذي يزحم أقطار النفس، وأقطار الحس.. ثم إنها اللمسات المبدعة المحيية، التي تنتفض بعدها المشاهد والمعاني أحياء في الحس والخيال.. وإذا كل مكرور مألوف من المشاهد والمشاعر، جديد نابض، كأنما تتلقاه النفس أول مرة؛ وكأنما لم يطلع عليه من قبل ضمير إنسان!...

وهي في كل موجة من هذه الموجات المتدافعة المتلاحقة المتشابكة، تبلغ حد «الروعة الباهرة»... وتأخذ على النفس أقطارها بالروعة الباهرة، وبالحيوية الدافقة، وبالإيقاع التصويري والتعبيري والموسيقى وبالتجمع والاحتشاد ومواجهة النفس من كل درب ومن كل نافذة!...

هذه السورة تعالج قضية العقيدة الأساسية.. قضية الألوهية والعبودية.. تعالجها بتعريف العباد برب العباد.. من هو؟ ما مصدر هذا الوجود؟ ماذا وراءه من أسرار؟ من هم العباد؟ من ذا الذي جاء بهم إلى هذا الوجود؟ من أنشأهم؟ من يطعمهم؟ من يكفلهم؟ من يدبر أمرهم؟ من يقلب أفئدتهم وأبصارهم؟ من يقلب ليلهم ونهارهم؟ من يبدئهم ثم يعيدهم؟ لأي شيء خلقهم؟ ولأي أجل أجلهم؟ ولأي مصير يسلمهم؟.. هذه الحياة المنبثقة هنا وهناك.. من بثها في هذا الموات؟.. هذا الماء الهاطل. هذا البرعم النابت. هذا الحب المترابك. هذا النجم الثاقب. هذا الصبح البازغ. هذا الليل السادل. هذا الفلك الدوار.. هذا كله من وراءه؟ وماذا وراءه من أسرار، ومن أخبار؟.. هذه الأمم، وهذه القرون التي تذهب وتجيء، وتهلك وتستخلف.. من ذا يستخلفها؟ ومن ذا يهلكها؟ لماذا تستخلف؟ ولماذا يدركها البوار؟ وماذا بعد الاستخلاف والابتلاء والوفاة من مصير وحساب وجزاء؟؟؟...

وسياق السورة يسوق على هذه القضية (أي قضية الألوهية) أدلته في تلك المشاهد والمواقف والإيقاعات البالغة حد الروعة الباهرة؛ والتي تواجه القلب بالحشود الخاشدة من المؤثرات الموحية، من كل درب ومن كل باب!«^(١)

اسمع الآن هذه الآيات من سورة الأنعام:

﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٤٧﴾ أَمْ يَرَوْنَ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [الأنعام: ٤٦-٤٨].

﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٤٩﴾ قُلْ أَعْيَرَ اللَّهُ تَلْكَ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُهُمْ وَلَا يُطْعِمُهُمْ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٥٠﴾﴾ [الأنعام: ١٣-١٤].

﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلُكُمْ مَا قَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٥١﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُومٌ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضِلَّهُ وَمَنْ يَشَأِ يُعَلِّمُهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾﴾ [الأنعام: ٣٨-٣٩].

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ انظُرْ كَيْفَ نَصَّرَفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْذِقُونَ ﴿٥٣﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَعْتَهُ أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الظَّالِمُونَ ﴿٥٤﴾﴾ [الأنعام: ٤٦-٤٧].

﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٥٥﴾ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [الأنعام: ٥٩-٦٠].

﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمْ اللَّهُ فَالِقُ تُوْفِكُونَ ﴿٥٧﴾ فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٥٨﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٦٠﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ

فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ
أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَُمْ
لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ
سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ ﴿ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ
صَاحِبَةً وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿ ذَلِكَُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ
شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿ لَا تَدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ
اللطيفُ الخبيرُ ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا
عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴿ وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿

[الأنعام: ٩٥-١٠٤].

﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكْلُهُ
وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا
تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿ وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةٌ وَفَرَسَاتٌ كُلُّوا بِمَا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا
خُطُواتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿ [الأنعام: ١٤١].

ربما أنت بحاجة الآن إلى فتح المصحف وقراءة سورة الأنعام بتدبر وخشوع.

التأمل يؤدي إلى اليقين

إذا عرفنا - مما سبق - أن الله تبارك وتعالى عرّف نفسه إلى عباده ليؤمنوا به عن طريق استشارة حواسهم لتأمل، ثم تفكر في إبداع الله في الكون وفي النفس وفي سنن التاريخ وفي أسائه وصفاته، فهذا يعني أن هذا هو الطريق الصحيح - إن لم يكن الوحيد - للوصول إلى الإيمان الحق أو.. اليقين.

قال الله تعالى عن سيدنا إبراهيم، كيف تم يقينه بالله: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ [الأنعام: ٧٥]. قال ابن كثير: «أي: تبين له وجه الدلالة في نظره إلى خلقها على وحدانية الله، عز وجل، في ملكه وخلقها، وإنه لا إله غيره ولا رب سواه»^(١).

فالطريق إلى اليقين يبدأ بالتأمل في ملكوت السموات والأرض، وهذا التأمل متوفر لكل البشر وليس قاصراً على إبراهيم عليه السلام وحده، وقد أنكر الله على من لا يؤمن به أنهم لا يتأملون فيما حولهم من خلق السموات والأرض، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجْلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٥].

وقال تعالى ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنْ نَسُوا نَحِيفَ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسِقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾ [سبا: ٩].

وتكاد تكون كل آيات القرآن التي تدعو إلى التأمل والتفكير تنتهي أو يسبقها ما يؤكد أنها طريق الإيمان واليقين؛ ففي الآيات المشهورة بسورة آل عمران والتي قال عنها رسول

(١) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم ٣/ ٢٩٠.

الله ﷻ: «ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها»^(١)، كانت الآيات تصف قومًا تأملوا في خلق السموات والأرض، ثم أدى بهم هذا التأمل إلى الخشوع لله والخضوع له، ثم دعاء وإنباء وتبتل ورجاء.

يقول تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَجْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿ رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ﴿ رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ... ﴾ [آل عمران: ١٩٠-١٩٥]. وكان رسول الله ﷺ إذا قام الليل قرأ هذه الآيات^(٢).

وسئل الأوزاعي عن معنى التفكير في هذه الآيات لكى ينجو القارئ من الويل، فسكت قليلا ثم قال: يقرؤهن وهو يعقلهن^(٣). وقال القرطبي في التفسير: «فختم تعالى هذه السورة بالأمر بالنظر والاستدلال في آياته؛ إذ لا تصدر إلا عن حي قيوم قدير وقدوس سلام غني عن العالمين؛ حتى يكون إيمانهم مستندا إلى اليقين لا إلى التقليد»^(٤). وقال الشوكاني: «إن مجرد التفكير فيها قصه الله في هذه الآية يكفي العاقل ويوصله إلى الإيمان الذي لا تزلزله الشبه ولا تدفعه التشكيكات»^(٥). وهذا هو اليقين.

بل إن أثر التأمل هذا قال به غير المسلمين أيضًا، فلقد كان من ضمن اقتراحات ألبرت شتيفزر، أحد الذين تخصصوا في فلسفة الحضارة، لحل مأساة الإنسان المعاصر أن

(١) رواه ابن حبان (٦٢٠) وغيره، وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٦٨).

(٢) متفق عليه: البخاري (١٨١) وهذا لفظه، ومسلم (٧٦٣).

(٣) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم ٢/١٩٠.

(٤) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ٤/٣١٠.

(٥) الشوكاني: فتح القدير، ١/٦٦٣.

يتم تخصيص ثلاث دقائق كل مساء للنظر في السماء المرصعة بما لا نهاية له من النجوم تمهيدا لإصلاح الأحوال التي نعيش فيها اليوم^(١).

كثير من آيات القرآن الكريم، بعدما تعرض آيات تحت على التأمل سواء في النفس أو في الخلق أو في سنن الله أو في اسمائه وصفاته.. تعقبها بالأمر بالتسبيح أو التعظيم، وهى لفظة قرآنية تدل على تأثير التأمل في النفس والعقل والروح، فيكون التسبيح أو الاستغفار أو ذكر الله بعد هذا التأمل شيئاً آخر تماماً، إذ أنه الآن يخرج من صميم القلب المتأثر. «ومثل ذلك ما جاء في سورة الواقعة، فبعد أن توالى الآيات التي تتحدث عن قدرة الله المطلقة والتي من شأنها أن تجعل المتفكر فيها يستشعر عظمته سبحانه وقيوميته.. بعد ذلك طالبتنا الآيات بالتسبيح... إن هذا التسبيح بلا شك سيكون تسبيحا مختلفا عن ذلك الذي نردده بألسنتنا وقلوبنا تسبح في بحر الدنيا»^(٢).

جرب هكذا أن تقرأ الآيات القادمة في خشوع وتأمل:

﴿نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ﴾ ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُفَرْتُمْ﴾ ﴿أَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ﴾ ﴿نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ ﴿عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ﴾ ﴿أَأَنْتُمْ تَرْزُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الرَّازِقُونَ﴾ ﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾ ﴿إِنَّا لَمَغْرُمُونَ﴾ ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ﴾ ﴿أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ﴾ ﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ أَسْفًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ ﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ﴾ ﴿أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ﴾ ﴿نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذَكِّرًا وَمَنَاعًا لِلْمُقِيمِينَ﴾ ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ [الواقعة: ٥٧ - ٧٤].

سبحان ربي العظيم.. سبحان ربي العظيم.. سبحان ربي العظيم.

إنها الآن تخرج من القلب حقاً، تخرج من قلب يستشعر مدى ضآلته في هذا العالم

(١) د. مصطفى حلمي: الأخلاق بين الفلاسفة وعلماء الإسلام ص ٣٢.

(٢) د. مجدى الخليلي: الإبان أولاً، فكيف نبدأ به، ص ٢٠٥.

الضخم الرهيب الذي يخضع فيه كل شيء لله الواحد القهار، بل إنه حتى ضئيل أمام نفسه وفي داخله، حتى ذلك الجسد الصغير بالنسبة للعالم الهائل الاتساع يخضع لله ويسير بأمر الله، فحتى المنى الذي يخرج هذا الجسم ليس لأحد يد في خلقه إلا الله وحده، حتى هذا السائل اللزج الذي هو سبب التكاثر والحياة، والذي يخرج من الجسم ليستقر في الأرحام، خارج عن قدرة البشر وعن خلق البشر..

وهكذا يكون الموت المحتوم ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ﴾ [الواقعة: ٥٨-٦٠].
نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿ [الواقعة: ٥٨-٦٠].

وطالما أن أدق خصوصيات الجسم تخضع قوانينها ومسيرتها في الحياة لله تعالى وحده، فلا عجب إن كانت الزروع والثمار، ثم الماء والأمطار، ثم الأشجار والنار تخضع لله تعالى.

إنها هزات عنيفة للقلب:

﴿أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ﴾ [الواقعة: ٥٩]؟

﴿أَأَنْتُمْ تَنْزِعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾ [الواقعة: ٦٤]؟

﴿أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمَازِنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ﴾ [الواقعة: ٦٩]؟

﴿أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ﴾ [الواقعة: ٧٢]؟؟؟

هزات لا تترك القلب إلا خاضعًا مستسلمًا يعلن عجزه الكامل عن فعل أي شيء، ليكون خاضعًا لهذا الأمر الإلهي العميق الجليل ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ [الواقعة: ٧٤].

وكل هذا من خلال النظر والتأمل في أبسط الظواهر في الحياة البشرية.

هكذا هو القرآن، ومنهج القرآن في تعريف الناس بالله تبارك وتعالى وفي حثهم على

الإيمان به واليقين فيه.

«إن هذا القرآن يجعل من مآلوفات البشر وحوادثهم المكرورة قضايا كونية كبرى؛

يكشف فيها عن النواميس الإلهية في الوجود؛ وينشئ بها عقيدة ضخمة شاملة وتصورا

كاملا لهذا الوجود. كما يجعل منها منهجا للنظر والتفكير؛ وحياة للأرواح والقلوب،

ويقظة في المشاعر والحواس. يقظة لظواهر هذا الوجود التي تطالع الناس صباح مساء

وهم غافلون عنها؛ ويقظة لأنفسهم وما يجري من العجائب والخوارق فيها!
إنه لا يكل الناس إلى الحوادث الفذة الخارقة والمعجزات الخاصة المعدودة، كذلك لا يكلفهم أن يبحثوا عن الخوارق والمعجزات والآيات والدلائل بعيدا عن أنفسهم، ولا عن مألوف حياتهم، ولا عن الظواهر الكونية القريبة منهم المعروفة لهم.. إنه لا يبعد لهم في فلسفات معقدة، أو مشكلات عقلية عويصة، أو تجارب علمية لا يملكها كل أحد.. لكي ينشئ في نفوسهم عقيدة، وتصورا للكون والحياة قائما على هذه العقيدة.

إن أنفسهم من صنع الله؛ وظواهر الكون حولهم من إبداع قدرته، والمعجزة كامنة في كل ما تبدعه يده، وهذا القرآن قرآنه، ومن يأخذهم إلى هذه المعجزات الكامنة فيهم والمبثوثة في الكون من حولهم، يأخذهم إلى هذه الخوارق المألوفة لهم، التي يرونها ولا يحسون حقيقة الإعجاز فيها؛ لأنهم لطول ألفتهم لها غفلوا عن مواضع الإعجاز فيها، يأخذهم إليها ليفتح عيونهم عليها؛ فتطلع على السر الهائل المكنون فيها؛ سر القدرة المبدعة، وسر الوجدانية المفردة، وسر الناموس الأزلي الذي يعمل في كياناتهم هم أنفسهم كما يعمل في الكون من حولهم؛ والذي يحمل دلائل الإيانه، وبراهين العقيدة، فيبثها في كياناتهم، أو يوقظها في فطرتهم بتعبير أدق^(١).

وعلى هذا النهج كثير من الآيات القرآنية التي تثبت لنا أن القلب بالتأمل والتفكير يكون في حالة أخرى أكثر تهيؤا لقبول الإيانه ورسوخ اليقين.. بما انساب إليه من روائع الآيات التي تعرفه بالله تبارك وتعالى.

﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى • الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى • وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى • وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى • فَجَعَلَ عُنَاءَهُ أَخْوَى﴾ [الأعلى: ١-٥].

﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ • وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ • يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُخْبِئُ الْأَرْضَ

بَعْدَ مَوْعِهَا وَكَذَلِكَ نُخْرِجُونَ ﴿١٧﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ ﴿١٨﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٩﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَالْوَأْنِ كُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالَمِينَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُخْجِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَهٍ قَانِتُونَ ﴿٢٤﴾ وَهُوَ الَّذِي بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٥﴾ [الروم: ١٧-٢٥].

﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّهَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس: ٧٧-٨٣].

وكثير من الآيات تبدأ بحمد الله الذي جعل وخلق وأبدع وأنعم، فالحمد (وهو ذكر من الأذكار التي يداوم عليها المسلم) يكون في هذه الحالة أوضح وأكثر تأثيراً وحيوية نابضة.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٠٠﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ مَمْرُؤُونَ ﴿١٠١﴾ وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿١٠٣﴾ [الأنعام: ١-٤].

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ آتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٠٤﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿١٠٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ

أُمٌّ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٥﴾ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِم أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴿٤٧﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٨﴾ [الأنعام: ٤٥-٤٨].

﴿وَقَالَ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وِليٌّ مِّنَ الدُّنْيَا وَكَبِّرُهُ تَكْبِيرًا﴾ [الإسراء: ١١١].

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ﴾ [سبأ: ١-٢].

وعلى هذا النهج تسير الآيات خصوصا آيات السور المكية التي كان هدفها كما ذكرنا غرس الإيثار في القلوب وهدايتها إلى خالقها العظيم الجليل.

والتأمل في خلق الله وفي سننه يدفع القلب دفعا إلى طريق الله والإيمان به واليقين فيه، إلى الحد الذي يعتبر فيه عدم الإيمان شيئا يثير التعجب والدهشة والاستغراب والاستنكار، وكم من آيات تحمل هذا الاستنكار لمن لم تهديه آيات الله وبدائعها، وصفاته تعالى، وسننه في كونه، وفي الزمان.. إلى الإيمان واليقين.

وفي سورة قصيرة كسورة الغاشية حين أراد الله تبارك وتعالى أن يسوق دليلا للإيمان بمشاهد الآخرة التي وصفتها السورة لكي يؤمن الناس بها، كان هذا النداء الذي يستحث العقول إلى التأمل لتصل إلى الإيمان بالآخرة، ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ [الغاشية: ١٧-١٨].

بل كان القرآن الكريم يرى فيمن لم يهده ذلك التأمل والتفكير دليلا على فساد العقل، إذ لم يعد يعقل أو فساد الجوارح التي لم تعد تسمع أو تبصر، بما يعنى أن التأمل يوصل

-بطبيعة الحال- طالب الحق والساعي إليه بتجرد وحياد ودون تعصب أو انغلاق أو عناد، حتى لقد استحق قسم من الخلق أن يدخلوا جهنم إثر تعطيلهم لهذه الجوارح التي لم تهدم إلى الله وإلى أسماؤه وصفاته، فكانوا عند الله كالبهائم، بل وأضل من البهائم.

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آدَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾ وَاللهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٧٩-١٨٠].

وكانت آية مزلزلة حقا تلك التي أقسم الله فيها بذاته المقدسة الجليلة على أن يوم القيامة حق لا ريب فيه، لكن انظر كيف قَدَّم الله هذه الحقيقة بآيات التأمل والتفكير، قال تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠٠﴾ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَوَرَبَّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ﴾ [الذاريات: ٢٠-٢٣] ولعلها أكبر مصيبة وأشد كارثة يقع فيها الإنسان حين يعطل هذه الحواس التي وهبها الله له، والتي يستطيع أن يكتشف بها حقائق الكون والحياة فينجو من عذاب دائم.. ليستشعر لذة اليقين.. قبل أن يرى ويتذوق لذة الجنة، ونعيم القرب من الله تبارك وتعالى في الدنيا، ورؤية وجهه الكريم في الآخرة.

واسمع تلك الآيات التي تحمل معاني الرحمة والرفق الإلهي العميق، في ذات الوقت الذي تحمل فيه الاستغراب والاستنكار لوضع لا يتفق لا مع العقل ولا مع الروح، بل ولا حتى مع الحواس الظاهرة التي تنادى بها الآيات وتستحثها للعمل.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُم بِاللَّيْلِ تَسْكُونُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الروم: ٧١-٧٢] تأمل كيف تنادى الآيات على السمع ليستشعر كيف ستكون مشقته وإرهاقه لو أن الليل كان سَرْمَدًا أبديًا، وكيف تنادى على البصر ليستشعر كيف ستكون مشقته وإرهاقه لو كان النهار سَرْمَدًا أبديًا.

إنها حالتان تبلغان درجة من العنت والضيق إلى حد الاختناق الرهيب بهذا الليل

الطويل الممتد اللانهائي، الذي ليس له حدود، ذلك الظلام المستمر المديد، أو ذلك النهار الذي يطول ويطول حتى لا يُرى له آخر ولا تبدو له نهاية تبشر بشيء من راحة وسكون.. هنا يقول الله: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الروم: ٧٣].

إن قليلا من التأمل في حال انتظام الليل والنهار، ذلك الانتظام الضروري لموافقة الطبيعة البشرية، الضروري لتبلغ راحتها وتحيا في اطمئنانها، يبعث على الإيمان بأن خالق الإنسان هو هو خالق ذلك النظام، وأن استمرار هذا النظام من علامات ودلائل الرحمة التي يتصف بها هذا الخالق سبحانه وتعالى، ومن ثم الإيمان واليقين فيه، لكن الملفت للنظر، وهو ما يهمننا في مقامنا هذا، هو الكيفية التي استعمل بها القرآن مثل هذه الدلائل، لقد أحيطت هذه الدلائل من قبلها ومن بعدها بآيات تفرد الله تبارك وتعالى بالتوحيد والالوهية.

اقرأ مرة أخرى بقلبك:

﴿وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ * قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ * قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِاللَّيْلِ تَسْكُونُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ * وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ * وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ * وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [الروم: ٧٠-٧٥].

تعالى معي أخى الحبيب في رحلة قصيرة مع سورة النحل، فيها يقدم القرآن الكريم أدلته الواضحة من حياة الناس اليومية على وجود الآخرة وعلى استحقاق الله تبارك وتعالى بالحب والعبادة والالوهية.

يقول تعالى: ﴿آتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ * يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾ *

خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ * وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرْجَوْنَ وَحِينَ تُسْرَحُونَ * * وَتَحْمِلُ أُنْفُسَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بِالْفِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرُؤُوفٌ رَّحِيمٌ * وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ * وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِزٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ * هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ * يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * وَسَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ * وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ * وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حَبْلَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاجِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * وَالْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَايِي أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ * وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ * أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَعَفُورٌ رَّحِيمٌ * وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ * وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ * أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ * إلهكم إله واحد فالذين لا يؤمنون بالآخرة فلوهم منكروة وهم مستكبرون ﴿النحل: ١-٢٢﴾. والقرآن الكريم يتفجر بمثل هذه الآيات التي لا تحتاج إلى أكثر من قلب خاشع وعقل حاضر ليستقبل هذه اللمسات القرآنية المبدعة والعميقة.

والمقام هنا لا يتسع لدراسة في هذا الأسلوب القرآني البليغ الذي خاطب الناس بما يرونه ويشعرون به، ولفت أنظارهم إلى تلك الدقائق واللفتات واللمسات الرقيقة، التي تخاطب العقل والروح، وتنبه الحواس إلى الحقائق التي تنتصب أمامهم طوال الوقت، ثم استثمر حالة التأثر الطبيعي والتلقائي في الطرُق على إدراكات الحواس، وجوانب العقل، ومشاعر النفس ونبضات القلب لتؤمن بهذا الإله العظيم، وبهذا الدين، وباليوم الآخر.. حتى لا يخرج القارئ من قراءته للقرآن إلا وهو في حالة أخرى، لو كان له قلب أو ألقى السمع.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧].

بل إن الله - تبارك وتعالى - يقسم بكثير من مخلوقاته في كثير من الآيات القرآنية على أشياء كثيرة، وهذا دليل آخر ربيا أقوى من كل ما سبق لما فيه من «قسَم»، وما صيغ به من ألفاظ قوية.. دليل على الإبداع والفوائد المكنوزة في هذه المخلوقات، وهى لفظة تنبه الأذهان في كل العصور إلى ما تحويه تلك المخلوقات من القدرة المطلقة والحكمة المطلقة والنعمة المطلقة لله رب العالمين تبارك وتعالى.

فيقسم بالرياح تذرو الغبار، وبالسُّحْب تحمل الماء، وبالسفن كيف تجرى على الماء بهذه البساطة واليسر، ويقسمه الأرزاق والأمطار.. لإثبات وعد الآخرة ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذُرُوءًا﴾ ﴿فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا﴾ ﴿فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا﴾ ﴿فَالْمُقَسَّمَاتِ أَمْرًا﴾ ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٍ﴾ ﴿وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ﴾ [الذاريات: ١-٦].

ويقسم بالتين وبالزيتون وبجبل الطور.. على إحسانه - تبارك وتعالى - لمخلوق الإنسان ﴿والتين والزيتون وطور سينين﴾ ﴿وهذا البلد الأمين﴾ ﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم﴾ [التين: ١-٤].

ويقسم بالسماء وبالنجوم لإثبات وجود الرقابة الإلهية والإحاطة الإلهية بأفعال الإنسان. ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ﴾ ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ﴾ ﴿النَّجْمِ الثَّاقِبِ﴾ ﴿إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ [الطارق: ١-٤] ثم - وبنفس القسم - يشير إلى عملية خلق الإنسان كدليل على قدرته - جل في علاه - على البعث في الآخرة ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ﴾ ﴿خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ﴾ ﴿يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾ ﴿إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ﴾ [الطارق: ٥-٨].

ثم يقسم بالسماء الممطرة، والأرض التى تنشق عن الزرع في قوانين لا تتغير، على جدية هذه الحياة، وجدية هذا القرآن، وجدية وعد الآخرة. ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ﴾ ﴿وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ﴾ ﴿إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَضْلٌ﴾ ﴿وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ﴾ [الطارق: ١١-١٤].

والآيات في هذا كثيرة أيضاً، وحسبنا في هذا المقام هذه الإشارات.

ومن العجيب والدليل على ثبوت هذا القرآن مدى الزمان، أن هذه المخلوقات التى أقسم الله بها هى بالذات ما يكتشف فيها إلى الآن روائع تعد إعجازا علميا لهذا الكتاب الخالد. فيثبت العلم الآن روعة اللفظة القرآنية في قوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ

﴿ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لِّوَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴿ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ ﴿ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴿ تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الواقعة: ٧٥-٨٠]؛ إذ يثبت الآن علمياً أننا على الأرض قد نرى نور النجم في الليل في مكان، في حين أن النجم نفسه قد يكون انتقل إلى مكان آخر أو قد يكون حتى قد انفجر منذ مئات أو آلاف السنين.. وإن هذا النور هو المكان الذي كان فيه النجم منذ مئات أو آلاف السنين فأرسل منه هذه الأشعة التي وصلت إلينا بعد كل هذه المدة؛ فمكان النجوم ليس هو المكان الذي نتخيله وينبعث منه النور.

ولذلك كان الله تبارك وتعالى يقسم بمواقع النجوم لا بالنجوم ذاتها، وهو القسم الذي لم نعرفه حقاً إلا في العصر الحديث، ومن يدري.. ربما لم نعرفه بعد، وسيعرفه من يأتي بعدنا بما هو أكثر عظمة وإبهاراً.

وكذلك إذ يقسم الله تبارك وتعالى بالنجم الثاقب الذي يسميه الله (الطارق)، أذكر أنه في حلقة تلفزيونية للعالم العالمى الجليل د. زغلول النجار، تحدث عن نجم معين لا يرسل ضوءاً وإنما يرسل موجات صوتية تشبه الطرقات تماماً، وهو بهذا اكتشاف علمي؛ إذ إن الصوت لا ينتقل في الفراغ، والكون فيما هو خارج الأرض يقبع في سكون تام، فيثقب هذا النجم هذا السكون الكوني بطرقته فسمى النجم الطارق الثاقب.. وسبحان من خلق الكون وأنزل القرآن.

وفي قوله تعالى: ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ ﴾ الْجَوَارِ الْكُنَّسِ ﴿ [التكوير: ١٥-١٦] إعجاز لم يكشف إلا حديثاً، من خلال اكتشاف «الثقوب السوداء»، وهو الاسم العلمى لنجوم شديدة الكثافة إلى حد فائق التركيز، حتى إن الملعقة من مادتها قد تزن أطناناً.. هذه النجوم لا تسمح بخروج الضوء منها لشدة كثافتها لذلك لا تُرى، فتحتوى بهذا على كمية ضخمة من الطاقة تمكنها من ابتلاع أى جرم سماوى آخر لما فيها من جاذبية قوية.

وهذا التعبير القرآنى (خانس - أى غير ظاهر وغير مرئى - جارٍ كانس) أصدق وأكثر انطباقاً على حالة النجم من الوصف المعروف له وهو (الثقب السود) لأنه ليس ثقباً، بل هو نجم.

وسبحان من خلق الكون وأنزل القرآن.

حينما يستشعر الإنسان أنه في ذاته إحدى صنائع هذه القوة المبدعة القادرة اللامتناهية العظمة والجلال، اللا محدودة الكمال والجمال.. تلك القوة التي تملك هذا الكون الشاسع المتناثر المنتظم في ذات الوقت بقوانين القدرة والجمال.

حين ينساب إلى الإنسان ذلك الشعور يرتجف القلب من العظمة والمهابة، ثم يرتجف من الخجل والتقصير في حق الله العلي العظيم الكبير الذي وسع الكون علما وإحاطة.

ثم ينكسر الكيان البشرى كله ذليلا مستسلما لهذا الفيض العظيم من الرحمة الرقيقة التي يتعامل الله تبارك وتعالى بها مع عباده الذين لا يملون من الخطأ ومن التقصير، انكسار ناتج عن تاريخ طويل من التقصير والخطأ والمعصية.. بل من الإصرار على الخطأ والتلذذ بالتقصير واشتهاء المعصية.

بل هو انكسار واستسلام ينسف تلك العنجهية والكبرياء الفارغ الذي يسكن قلب البشرى الضئيل الضعيف الحقير الذي تذله الذبابة وتطيح به عاصفة رياح، وتحطمه هزة أرضية بسيطة.. انكسار يعيد ذلك الكائن المنتفخ إلى أن يشعر بالحقيقة وبالكون، يشعر بصغره وضعفه وضآلته، وأنه لا يملك حتى أن يتحكم في نفسه، ولا في أجهزته التي تعمل في داخله دون أن يأذن، ودون أن يشعر، ودون أن يكون له عليها أى سيطرة أو تحكم.

انكسار يعيد الأمور إلى نصابها، ليعرف الإنسان قدر الله.. هذا القدر المجهول الذي كان السبب في كل تلك الكوارث التي تتالت على حياة الإنسان حين كان يعصي الله جهلا به وبقدره وبقدرته على العقاب، وسرعته في الحساب.

الجهل الذي أعاقه عن اكتشاف ذلك السيل المنهمر اللا منقطع من الرحمة عليه، حتى وهو في أشد المعصية، وهذا الشلال بل الشلالات من النعم المتوالية حتى وهو في أسوأ حالات الجحود والنكران.

انكسار يذيب قسوة القلب وبلادة الروح، يذيب تلك الحيوانية والشراسة والعنف التي تسكن إنسان العالم المادى الجامد البارد الصلب البليد، ويدهلها بلمسة إنسانية

تستشعر فيها حولها من الكون والناس والطبيعة وعالم الحيوان والنبات لمسات الإبداع والجمال والرقه والهدوء والانسياب المبهر..

إنه انكسار يعيد حياة الإنسان روح الحياة، ومعنى الحياة، ولذة الحياة.

لكنه انكسار من نوع آخر..

رغم كل ما يجمله من انكسار وذل وخضوع واستسلام ورقة.. لكنه يختلف عن كل

انكسار في أنه «انكسار لله».. انكسار لله وحده..

والانكسار لله ذو معنى آخر، وطعم آخر.. إنه انكسار مستحق لقوة لا تتصف

بمجرد القوة والقدرة والقهر والجبروت، بل تتصف قبلها بالرحمة والرفقة والغفران

والعفو.. هو انكسار للكمال المطلق الذي تسبق رحمته غضبه، وتسبق رأفته عدالته..

هو انكسار يفرضه الحب الهادر قبل أن تفرضه الخشية الرهيبة.. انكسار يلجأ به

الإنسان إلى الله هاربا من كل الدنيا، ومن كل سطوتها وقسوتها ومعاناتها، مرتعيا في رحاب

الله باكيًا.. تمامًا كأنطلاقة الطفل الصغير إلى حضن أمه ليجد في حضنها ملجأ من كل شيء

خلف ظهره.

هذا اللجوء إلى الله تبارك وتعالى، هو الدخول في الأمان.. الطمأنينة.. الاستقرار،

تمامًا.. تمامًا كما لا يشعر بالأمان فعلا إلا طفل في حضن أمه أو أبيه.. إنه هنا فقط يؤمن أن

ذلك الحزن كفيف بأن يحميه من كل شيء، وأن يقضى على كل مشكلة، وأن يقتل كل فزع

وكل رعب.

وهو لجوء المحب إلى حبيبه، شوقا وراحة وسكنا.. حب تفرضه المعرفة بعظمة الله

ورحمته وعفوه وعطفه.. مع تكرار الخطأ وتكرار المعصية وتكرار الإساءة في جنبه تبارك

وتعالى.

هذا الانكسار لله، والاحتفاء بالله.. هو في ذات اللحظة مصدر القوة الهادرة

والشجاعة الثائرة في عالم الأحياء ومجال الأرض.. الانطلاق من رحاب الله، ذلك الحصن

الآمن، وتحت رعاية الله التي تشمل امتدادات الزمان والمكان، وتحت عين الله التي لا

تغفل ولا تنام ولا يعزب عنها مثقال ذرة.. هو انطلاق يحمل فيه كل معاني القوة، وينظر لكل قوة في الأرض نظرة استخفاف وازدراء واحتقار.

اليقين في الله تبارك وتعالى هو الذي يحول الإنسان إلى طاقة تغيير ترفع راية الله لتغسل هذه الأرض من كل قذاراتها وملوثاتها.. بل لتغسل قبل ذلك نفس الإنسان وروحه من كل أنجاسها ودنسها.

ترى.. ما الذي يتمناه الإنسان أكثر من استشعار الأمن، وزوال الخوف؟ بل قل: ما الذي يتمناه أكثر من زوال الخوف فقط.. ونحن نرى الخوف يفترسنا ويمنعنا من النهوض ومن إزالة طواغيت الأرض صغيرها وكبيرها.. حتى أصبح الناس يجتاحهم الرعب من شرطي، فضلا عن رئيسه، فضلا عن رؤسائه... حتى نصل إلى من يدعى أنه يملك العالم ومن ليس معه فهو ضده.

إنه انكسار لله نعم.. لكن وجهه الآخر استعلاء وجرأة وشجاعة في مواجهة كل قوة وكل صعوبة وكل أزمة وكل مشكلة.

هذا الانكسار، هو النتيجة التي يخرج بها المتأمل في كون الله وفي آياته.. إن آيات التأمل تزرع في الإنسان الشعور بأنه محاط بالوجود الإلهي من كل جانب ولا يملك من أمر نفسه - فضلا عن أمر غيره - شيئاً.. انظر كيف يخاطب الله هذا الإنسان وهو الذي لا يملك حتى المتى الذي يخرج منه.. كيف يخاطبه الله في الزرع والثمار ثم الماء والسحاب ثم النار والشجر.

﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ﴾ * ﴿أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ﴾ * ﴿نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ [الواقعة: ٥٨-٦٠].

فالزرع دليل شاهد: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ﴾ * ﴿أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾ * ﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾ [الواقعة: ٦٣-٦٥].

والماء الذي لا تقوم حياة البشر إلا به، كيف أتى؟ ومن ذا الذي جعله عذبا؟ وماذا لو تحول ذات يوم إلى مالح؟! ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ﴾ * ﴿أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ

نَحْنُ الْمُنزَّلُونَ ﴿ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴾ [الواقعة: ٦٨ - ٧٠].

وتلك النار التي كان اكتشافها للإنسان «حادثا عظيما في حياته. ربما كان أعظم حادث بدأت منه حضارته»^(١)، كيف كان سرها يختبئ في احتكاك فرعين من فروع الشجر، من ذلك الذي وضع ذلك السر في فروع الشجر، ثم أباح لاحتكاكها أن يكشف السر المكنون؟

﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ﴿ أَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ ﴿ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكَرَةً وَنَمَاتًا لِلْمُقْبِينَ ﴾ [الواقعة: ٧١ - ٧٣].

إن هذا البشري الذي لا يملك أن يتحكم في عمليات نفسه أو هضمه أو تفكيره أو نبضه وهي في جسمه هو.. كيف لا يمكن له أن ينكسر لمن يملك كل هذا فيوقفه متى يشاء وينعم به متى شاء؟

حتى تلك الأعضاء التي يرى أنه يملكها.. يده وعينه ورجله ولسانه وجلده.. لن يلبث قليلا إلا وتخرج من سيطرته لتشهد عليه أمام الله في يوم القيامة. ﴿حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاؤُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿ وَقَالُوا لِمَ لُجُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقْنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿ [فصلت: ١٩ - ٢٠].

إذا شعر الإنسان بهذه الإحاطة الإلهية الكبرى، وبهذه الرحمة الإلهية المطلقة، وبهذه القدرة الإلهية البالغة.. فهذا طريقه - بلا شك - نحو اليقين.

اليقين الذي إذا ذاقه سيتذوق فيه كل سعادة الدنيا، وكل نعيم الآخرة.

«إن للكون - لو تدبر الإنسان واعتبر - لموقعا في النفس أي موقع، وروعة في القلب أي روعه، تلکم الأرض الخضراء مبسوطها وحالقها، وما يهتز عليها من مُلْتَفِّ النبات ومُعْشَوْشِبِ الروض، وتلكم الجبال الراسيات، والأنهار الجارية، والبحار ذات الجرجرة والضجيج، والجلجلة والعجيج، وقبة الفلك الزرقاء، تعصف في أجوائها كل

عاصفة هوجاء، تحدو السحب كل دجنة وطفاء، أنا تسيح بالديمة المدرار، وأونة بدفع الحريق وصواعق النار، ما هذه أيها الإخوان؟! بلى ما هذه؟! أما ظاهرها فقد عرف العالم عنه شيئاً، وأما الباطن فلا وربكم ما عرف ولن يعرف، هذا سر عميق لا ينفع معه علم عالم ولا تجربة كيمياوي، إنما أولى بالمرء الإذعان والخشوع، وللجهل هنا أفيد من العلم، وما يستفيدة المتوحش الجاهل من جمال الطبيعة بشعوره أكثر مما يكتسبه المتمدين العالم بمنظاره وكيميائه؟ ماذا صنع العلماء في أسرار الكون إلا أنهم زادوها خفاء واكتتاما بالباسها براقع من الأسماء والاصطلاحات؟ هم يسمون البرق كهرباء، ويلقون الدروس والمحاضرات في ذلك، ثم يُؤلَّدون مثال هذا البرق من الزجاج والحريير. ولكن ما هو ذلك البرق؟ وما الذي أحدثه؟ ومن أين جاء؟ وأين يذهب؟ لا أكذب الله، قد أظهر العلم أشياء كثيرة، ولكن بشئ ذلك العلم الذي يريد أن يحجب عنا جلال ذلك الكون الرائع الذي يتضائل العلم في حضرته، ويذل لعزته وعظمته، ويطفو على جوه الهائل كريشة في مهب الريح، والحق يقال يا إخواني، إن هذا الكون على الرغم من العلم ودعواه لا يزال عجيبة العجائب ومعجزة المعجزات.

بل كفى بالزمن معجزة- بذلك الشيء الفائق العد والحصر، الدائم الكرّ والمترّ، المستمر الصمت والسكون، دائباً يجري ويتدفق عجيلاً ساكتاً كتيار البحر الزاخر حيث نطفو فوقه وسائر الكون كخيالات تظهر ثم تغيب، وأنفاس لا تكاد تصدر حتى تبيد، أما كفانا بذلك معجزة؟ أليس ذلك جديراً أن يُلجِم ألسنتنا فلا نطق؟ وبماذا نطق؟ يا الله من هذا الكون الهائل؟... لعمري ماذا يقول الملحد المفكر -ولا أخال الإلحاد والتفكير يجتمعان- في هذه القوى الفعالة الدائبة المحدقة بنا، لا تكل ولا تني ولا تفتر، ولا أول لها ولا آخر ولا مبدأ ولا نهاية، ماذا يقول فيها إلا أنها معجزة رائعة، وقد يتساءل عنها المؤمنون فيقول أحدهم لأخيه «هي صنع الخالق» ثم يجيء العلم بمنظاره وآلاته فيجعل يُقلِّبها ويديرها كأنها هي جثة ميتة توضع في الزجاجات وتباع في الحوانيت، ولكن العقل الإنساني السليم الفطرة ما زال يرى في هذا الكون شيئاً حياً، شيئاً يحار فيه الذهن، إلهي المرجع. أولى الأشياء بنا إزاءه -مهما بلغ علمنا- أن نحني الرأس له إجلالاً وننكس البصر

خشية ومهابة ونعبد إن لم يكن بالمنطق فبالصمت»^(١).

ولعل القارئ الكريم يعجب حين يعرف أن الفقرات السابقة إنما هي محاولة الفيلسوف الإنجليزي الكبير توماس كارليل، لمعرفة كيف كان الإنسان البدائي ينظر إلى الطبيعة من حوله ويتأثر بها، فهي تأمل في تأملات الإنسان البدائي^(٢).

إنه ينبغي أن نقف طويلاً أمام هذه الفترة التي سبقت نزول الوحي على رسول الله ﷺ، فإنها الفترة التي انتهت بالحدث الفارق في التاريخ الإنساني كله؛ نزول الوحي وختم الرسالات وولادة خير أمة أخرجت للناس.

ليس من العبث أن تكون هذه الفترة.. فترة تأمل!

كان النبي ﷺ يخلو بنفسه في غار حراء فيتحنث فيه - أي يتعبد - الليالي ذوات العدد قبل أن يعود مرة أخرى إلى أهله ويتزود لذلك ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها^(٣)، أي أنها سلسلة من الخلوة ثم العودة للتزود بالطعام إلى خلوة أخرى.. وهكذا. وقد اختار ﷺ مكانه الذي يخلو فيه بحيث اجتمع له ثلاث مزايا: الخلوة، العبادة، النظر إلى الكعبة^(٤).

إن هذه الفترة تحديداً أغرت الباحثين والدارسين لحياة محمد ﷺ ولتاريخ الإسلام، وخصوصاً من غير المسلمين، بالتوقف أمامها طويلاً، لمحاولة استكشاف هذا السر العجيب الذي ظهر فجأة في حياة محمد ﷺ، وفَجَّر كل هذه الحياة في شعب كان على هامش التاريخ، وجعل من القبائل المتقاتلة على التوافه أمة واحدة تقاتل من أجل الرسالة،

(١) توماس كارليل: الأبطال، ص ١٠، ١١.

(٢) وإن كان كارليل لم يُوفق فيما بعد، حين قال بأن إعجاب الإنسان البدائي بهذه الطبيعة هو الذي جعله يعبد الشمس أو القمر أو النجوم أو غيرها من «جمال» الطبيعة. وذلك لأن الغربيين -العلميين- يعتقدون أن الإنسان البدائي كان أبسط من الإنسان المعاصر في عقله وتصوراته وأفكاره، ثم بدأ يتطور -وتتطور أفكاره- مع الزمن والحياة حتى نضجت، بينما يؤمن المتدينون بأن الإنسان الأول -وهو آدم عليه السلام- خلقه الله تعالى بيديه وعلمه الأسماء كلها، وكان عارفاً بالله ويتوحيده، وبالكون وطبيعته المخلوقة، وبنفسه ودوره في الحياة.

(٣) البخاري (٣)، مسلم (١٦٠).

(٤) ابن حجر العسقلاني: فتح الباري ١٢ / ٣٥٥. «من قول ابن أبي جمرة».

أما المتعصبون منهم فقد سلكوا في تفسير ما حدث مسالك شتى، وأما المنصفون الموضوعيون فقد تحدثوا عن «سر التأمل».

يقول الفيلسوف الإنجليزي الكبير توماس كارليل في محاضراته الشهيرة عن محمد ﷺ، تلك المحاضرة التي يعتبرها المستشرق الإنجليزي الكبير مونتجمري وات علامة فارقة في تحسين صورة محمد ﷺ في الغرب^(١)، وبداية لتقبل الناس له، يقول: «وكان من شأن محمد أن يعتزل الناس شهر رمضان فيقطع إلى السكون والوحدة، دأب العرب وعاداتهم، ونعمت العادة، ما أجل وأنفع ولا سيما لرجل كمحمد!! لقد كان يخلو إلى نفسه فيناجي ضميره صامتا بين الجبال الصامتة، متفتحا صدره لأصوات الكون الغامضة الخفية، أجل حبذا تلك عادة ونعمت - فلما كان في الأربعين من عمره وقد خلا إلى نفسه في غارٍ بجبل حراء قرب مكة شهر رمضان ليفكر في تلك المسائل الكبرى، إذ هو قد خرج إلى خديجة ذات يوم وكان قد استصبحها ذلك العام وأنزلها قريبا من مكان خلوته فقال لها: إنه بفضل الله قد استجلى غامض السر واستثار كامن الأمر، وأنه قد أنارت الشبهة وانجلى الشك وبرح الخفاء^(٢)، وأن جميع هذه الأصنام محال وليست إلا أخشابا حقيرة وأن لا إله إلا الله وحده لا شريك له...»^(٣).

وتستوقف هذه الفترة أيضًا نظر المستشرق والمفكر الفرنسي المعروف إميل درمنغم، والذي كانت حياته محاولة لتحسين صورة الإسلام في عيون الغربيين، وكان من المتخصصين في التاريخ الإسلامي في منطقة المغرب العربي، يقول في كتابه (حياة محمد):

«كان يقضي طويل الأيام في ذلك الغار متأملا عابدا، وما كان له أن يستغني عن العزلة، شأن أقوياء النفوس وذوي الجذ من الرجال، ولم ينفك محمد عن الانقطاع حتى بعد أن أصبح رئيس دولة وصارت أمور السياسة والحرب تشغل باله لما في الانقطاع من مصدر القوة والاتزان والحكمة الذي لا يتضب معينه... وإنما لتمثل محمدا في مدخل

(١) انظر مقدمة كتاب (محمد في مكة) لمونتجمري وات.

(٢) يعود سر هذه الصياغة الأدبية الراقية لأن كتاب كارليل (الأبطال) ترجمه أديب كبير فذ العبارة وهو الأستاذ محمد السباعي.

(٣) توماس كارليل: الأبطال، ص ٧٢ وما بعدها.

حراء الصعبة الجافة مستلقيا على صخرة مطلة على السهل، وعلى مكة المتشبهة بشعاب جبل أبي قبيس، فإذا ما أقبل الليل رأى محمد أشباه العراة من الرعاة يعودون بغنمهم بين أصفر الغبار، وكان الهواء من الهدوء والصفاء ما استطاع محمد أن يسمع معه نغاء الشياة ونقر عصي الرعاة على الحجارة، وشاهد اصفرار التلال الضارب إلى الحمرة بفعل أشعة الشمس الأخيرة، وكاد يرى لون الشجيرات الشائكة المناضلة عن حياتها مع الجذب.

ونظر محمد طلوع النجوم الأولى التي كان قد تأمل فيها غير مرة من شرف مكة أو من باب خيمة... وعَجِب من نظام الكواكب وانسجامها سابحة في الفضاء، وهذه الكواكب تكون في ليالي صيف الصحراء من الكثرة وشدة النور ما يُخيّل معه إلى الإنسان أنه يسمع صوتًا لِلْمَعَانِها كما يُسمع صوت نار موقد كبير.

والحق أن في السماء لآيات لأولى الأبصار، والحق أن العالم حافل بالأسرار، وأن العالم سرّ بنفسه، أفلا يكفي المرء أن يفتح عينيه وأذنيه ليرى ويسمع الحقائق؟ وهل يتطلب سماع أصوات ما وراء الكواكب غير قلب نقي ونفس صادقة وروح مستعدة؟

إن التأمل الطويل يطهر النفس وينبه روح المعانيّة، ويؤدي إلى كشف ما وراء الحجب، ويحث على العمل عند الضرورة، وقد استطاع أكابر المتأملين أن يكونوا من المبدعين الذين لم يَمَلُّوا، والتأمل الصحيح يحمل بذور الحركة والتحرر من الهوى^(١).

أليس من اللافت للنظر والمثير للذهن أن تكون المرحلة الأخيرة في إعداد النبي ﷺ للرسالة مرحلة تأمل وتفكير وتدبر؟

(١) إميل درمنغم: حياة محمد، ص ٥٠: ٥٢، (باختصار).

التأمل يحملك إلى باب الهداية

«أليس من اللافت للنظر والمثير للذهن أن تكون المرحلة الأخيرة في إعداد النبي للرسالة مرحل تأمل وتفكير وتدبر؟».. هذا السؤال يسوق إلى سؤال آخر:
أليس يعني هذا أن الإنسان إذا فتح عينه وأذنه فتأمل وتفكر بصدق وإخلاص، كان على أبواب الهداية للحق الكامل، لا يحتاج فقط إلا إلى العلم أو الوحي ليعرف الله «حق المعرفة» ثم يعرف «كيف» يعبد الله خالق هذا الكون كما يجب ويشاء ويرضى؟
الجواب نعم، وفي التاريخ شاهد ودليل..

لقد كان للتأمل أثر عظيم في غرس وتعميق الإيمان في القلوب، إلى الحد الذي جعل بعضاً من الجاهليين يرتفع عن مستوى الجاهلية التي حوله، ويتحرر من ضغط المجتمع الغارق في عبادة الأصنام، ليخط لنفسه طريقاً جديداً تماماً، فيصل إلى الهداية التي لم يكن ينقصها إلا ومضة علم..

أولئك هم الحنفاء.. وأشهر أولئك هو الشيخ الحكيم قسّ بن ساعدة، فهذا الشيخ أفضى به تأمله إلى الحكمة، فعرف أن الذي خلق هذا الكون لا يُعبد حق العبادة، ورويت له الخطب الرائعة الزاخرة بالمعاني المتأملة في النفس والكون والحياة، وهو الذي قال:

في السذاهبين الأوليين	من القرون لنا بصائر
لمأ رأيت موارد	للموت ليس لها مصادر
ورأيت قومي نحوها	تسعى الأصاغر والأكابر
لا يرجع الماضي إليّ	ولا من الباقيين غابر
أيقنت أنسى لا محما	لـه حيث صار القوم صائر

وخطب ذات يوم في الناس فقال: «أيها الناس اجمعوا، واسمعوا وعوا، من عاش

مات، ومن مات فات، وكل ما هو آت آت. إن في السماء لخبراً، وإن في الأرض لعلواً،
مهّاد موضوع، وسقف مرفوع، ونجوم تمور، وبحار لا تغور. ليلاً داج، وسماء ذات
أبراج، وأرض ذات فجاج، وبحار ذات أمواج. أقسم قس (يقصد نفسه) قسماً حاتماً: لئن
كان في الأمر رضا ل يكونن سخطاً، إن لله ديناً هو أحب إليه من دينكم الذي أنتم عليه، ما
لي أرى الناس يذهبون ولا يرجعون؟ أرضوا بالمقام فقاموا؟ أم تركوا هناك فناموا؟».

وكان من شعره أيضاً، ما يؤكد أن التأمل أوصله إلى الهداية ومعرفة الحق، قوله:
هاج للقلب من جواه ادكار^(١) وليال خلاهن نهار
وجبال شوامخ راسيات وبحار مياهن غزار
ونجوم تلوح في ظلم^(٢) الليل تراها في كل يوم تُدار
والذي قد ذكرت دل على الله نفوسا لها هدى واعتبار^(٣).

ومن كانوا من الخفاء في الجاهلية زيد بن عمرو بن نفيل، وهو والد الصحابي الجليل
سعيد بن زيد أحد العشرة المبشرين بالجنة، وكان زيد لا يأكل من الذبائح التي تذبحها
قريش، ويقول: الشاة خلقها الله وأنزل لها من السماء الماء وأنبت لها من الأرض ثم
تذبحونها على غير اسم الله!!^(٤).

وكانت له رحلة في البلاد للبحث عن الدين الحق، حيث خرج إلى الشام ولقى

(١) ادكار: تذكّر.

(٢) ظلم: جمع ظلمة.

(٣) وردت أخبار قس بن ساعدة عبر حديث رواه أبو نعيم في دلائل النبوة (٥٥)، والبيهقي في الزهد (٦٩٦)،
والطبراني في المعجم الكبير (١٢٥٩١) والبخاري (٥٣٤٧). والحديث يحكي عن أن النبي سأل عنه ناساً من
قومه، وأنه تذكر قسا يوم أن كان يخطب. وسائر طرق الحديث ضعيفة، ومن العلماء من رأى أن كثرة طرق
الحديث يدل على أن له أصلاً كالبيهقي وابن كثير في السيرة النبوية ١/١٥٢، وبران الدين الحلبي في السيرة
الحلبيه ١/٣٢١، ومنهم من ضعفه كابن حجر: الإصابة ٥/٥٥٢، والصالحي الشامي في سبل الهدى
والرشاد ٢/١٨٧، ومنهم من حكم بوضعه كابن الجوزي في الموضوعات ١/٢١٣، والسيوطي في اللآلئ
المصنوعة ١/١٦٦، والألباني في السلسلة الضعيفة ١٢/٨٣٣، برقم ٥٩٠٦).

ونحن هنا لسنا في مجال إثبات الحديث ولا تحقيق صحته أو ضعفه، وإنما في مجال إثبات الرواية التاريخية التي
تصف لنا حال قس بن ساعدة، بغض النظر عن صحة الحديث من عدمه، فبمقاييس الحكم على الرواية
التاريخية لا على الحديث النبوي، نستطيع أن نقول باطمئنان أنها رواية تاريخية ثابتة.

(٤) البخاري (٣٦١٤)

اليهود والنصارى ثم أعلن أنه على دين إبراهيم حنيفا لا يعبد إلا الله^(١).

وحكت عنه السيدة أسماء بنت أبي بكر (رضي الله عنها) قالت: رأيت زيد بن عمرو بن نفيل قائما مسندا ظهره إلى الكعبة يقول: يا معاشر قريش، والله ما منكم على دين إبراهيم غيري. وكان يُحْيِي الموءودة؛ يقول للرجل إذا أراد أن يقتل ابنته: لا تقتلها، أنا أكفيكها مؤونتها فيأخذها، فإذا ترعرعت قال لأبيها: إن شئت دفعتها إليك وإن شئت كفيتك مؤونتها^(٢).

ومات زيد بن عمرو قبل أن يوحى إلى النبي ﷺ، فحين سئل عنه النبي ﷺ قال: «يبعث يوم القيامة أمة وحده»^(٣).

ثم لدينا- بعدئذ- المثال المشهور، وهو ورقة بن نوفل ؓ الذي ترك الجاهلية وأنكرها، ثم بحث ونقب ودخل في النصرانية وقرأ كتبها وتبحر فيها، فما كان يحتاج بعد هذه الرحلة التأملية الفكرية إلا إلى أن تدخل عليه خديجة رضي الله عنها، ومعها زوجها الحبيب محمد، فيحكي له قصة الوحي ونزول جبريل، فحينها تكتمل الصورة ويكتمل الإيمان، بل ويكتمل في ذهنه خط التاريخ ليعلن:

«هذا الناموس الذي نزله الله به على موسى، ياليتني فيها جَذَعُ^(٤)، ليتني أكون حيا إذ يخرجك قومك» فتعجب النبي وقال: «أَوْخُرُجِيَّ هم؟؟»، فقال ورقة: نعم لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصرا مؤزرا^(٥).

وما لبث بعد هذا أن توفي قبل أن تبدأ قصة الإسلام على هذه الأرض، وقبل أن تبدأ المعركة التي كان يريد أن يشهدها لينصر دين الله نصرا عزيزا مؤزرا، ولكنه في الجنة كما أخبر النبي ﷺ، قال: «قد رأيته فرأيت عليه ثياب بياض أبصرته في بطنان الجنة وعليه السندس»^(٦).

(١) البخاري (٣٦١٥)

(٢) البخاري (٣٦١٦)

(٣) الألباني: صحيح السيرة النبوية ص ٩٤.

(٤) جذع: أي شاب صغير.

(٥) متفق عليه: البخاري (٣)، ومسلم (١٦٠).

(٦) الألباني: صحيح السيرة النبوية ص ٩٤.

لم يكن هؤلاء إلا أناسا فتحوا عيونهم وأذانهم، وأخلصوا في بحثهم عن الحق والحقيقة، فما لبثت آيات الله في الكون والحياة أن أخرجتهم عن ضلالات الجاهلية ووضعتهم على أبواب الإيمان، ونستطيع أن نقول بأنهم إذا أدركوا بعثة النبي ﷺ لكانوا السابقين إلى الإسلام، وأول فرسانه المخلصين.

والأمر لا يتوقف فقط عند تاريخ العرب في الجاهلية، بل يضطرد في تاريخ كل الأمم، لكن ضياع التواريخ المنضبطة للأمم القديمة أو ظروف كتابتها التي جعلتها أحيانا بيد رؤساء البلاط وكهنة المعبد، يقف عائقا كبيرا أمام استجلاء المذاهب الفكرية الموجودة في هذه الأزمنة بوضوح، غير أننا لا نعدم أمثلة عن متأملين أوصلهم التأمل مع الإخلاص إلى أبواب الإيمان.

فعلى سبيل المثال يذكر الشهرستاني صاحب كتاب «الملل والنحل» عن فيلسوف اليونان الكبير سقراط أنه «الحكيم الفاضل الزاهد من أهل أثينا، اشتغل بالزهد ورياضة النفس وتهذيب الأخلاق وأعرض عن ملذات الدنيا واعتزل إلى الجبل»^(١) وأقام في غاربه، ونهى الرؤساء الذين كانوا في زمانه عن الشرك وعبادة الأوثان، فَشَوَّرُوا عليه الغاغة وألجئوا ملكهم إلى قتله فحبسه الملك ثم سقاه السم»^(٢). ثم يذكر من كلام سقراط بعضا منها، فمن كلامه عن الإله قوله:

• إن الباري تعالى لم يزل هوية فقط وهو جوهر فقط، وإذا رجعنا إلى حقيقة الوصف والقول فيه وجدنا المنطق والعقل قاصرين عن اكتناه وصفه وحقيقته وتسميته وإدراكه؛ لأن الحقائق كلها من تلقاء جوهره، فهو المدرك حقا والواصف لكل شيء ووصفا، والمسمى لكل موجود اسما، فكيف يقدر المسمى أن يسميه اسما؟ وكيف يقدر المحاط أن يحيط به ووصفا؟ فنرجع فنصفه من جهة آثاره وأفعاله وهي أسماء وصفات إلا أنها ليست من الأسماء الواقعة على الجوهر المخبرة عن حقيقته وذلك مثل قولنا: إله أي واضح كل شيء وخالق أي مقدر

(١) هذه الخلوّة تذكرنا بسيرة المتأملين جميعا، وأعظمهم نبينا ﷺ فيما قبل الوحي.
(٢) الشهرستاني: الملل والنحل، تحقيق: محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، بيروت، ١٤٠٤ هـ. ٨٢/٢.

كل شيء وعزيز أي ممتنع أن يضام، وحكيم أي محكم أفعاله على النظام، وكذلك سائر الصفات.

• إن علمه وقدرته وجوده وحكمته بلا نهاية ولا يبلغ العقل أن يصفها ولو وصفها لكنت متناهية.

• أخص ما يوصف به البارئ تعالى هو كونه حيا قيوما؛ لأن العلم والقدرة والوجود والحكمة تندرج تحت كونه حيا، والحياة صفة جامعة للكل، والبقاء والسرمد والدوام وحفظ النظام في العالم تندرج تحت كونه قيوما، والقيومية صفة جامعة للكل.

ثم يتحدث الشهرستاني عن أفلاطون فيذكر أنه «معروف بالتوحيد والحكمة»، ويعرض لأرائه فيذكر من أقواله:

• إن للعالم محدثا مبدعا أزليا واجبا بذاته عالما بجميع معلوماته على نعت الأسباب الكلية، كان في الأزل ولم يكن في الوجود رسم ولا طلل.

• وعندما سُئل: ما الشيء الذي لا حدوث له؟ وما الشيء الحادث وليس بيباق؟ وما الشيء الموجود بالفعل وهو أبدأ بحال واحدة؟ أجاب: إنما يعني بالأول: وجود البارئ تعالى، وبالثاني: وجود الكائنات الفاسدات التي لا تثبت على حالة واحدة، وبالثالث: وجود المبادئ والبسائط التي لا تتغير.

• إن الأشياء التي لا ينبغي للإنسان أن يجهلها منها: أن له صانعا وأن صانعه يعلم أفعاله، وذكر أن الله تعالى إنما يعرف بالسلب أي لا شبيه له ولا مثال، وأنه أبداع العالم من لا نظام إلى نظام، وأن كل مركب فهو إلى الانحلال وأنه لم يسبق العالم زمان ولم يبدع عن شيء^(١).

وكذلك أرسطو، ذلك الفيلسوف الكبير الملقب بالمعلم الأول، جرى ونسج على هذا المنوال على خلاف مشهور عند أهل هذا الشأن، وكذلك كثير من فلاسفة

(١) الشهرستاني: الملل والنحل ٢/ ٨٢: ٩٣.

اليونان^(١)، فهم بعد التأمل «كافرون بآلهة اليونان، وأما الإله الحق فهم يبحثون عنه، ومنهم من يعجز عقله عن تصوره، ومنهم من يقوده العجز إلى الضلال، وآراؤهم على ما فيها من ذكاء وإخلاص في البحث تنطوي على نظرات إلى الكون ساذجة حائرة، فيها ومضات من نور الحق، في ظلمة حالكة من الإبهام والغموض والشك»^(٢).

ولن نعدم مثل هذا في حكماء وفلاسفة الأمم قبلهم، فمنذ الفراعنة، أقدم الحضارات الكبرى المعروفة في التاريخ، نقرأ في آثار إخناتون كلاما يجعلنا لا ندرى هل هو كلام متأمل وصل إلى باب الهداية أم كلام نبي ممن لم يقصص الله علينا قصصهم، أو حنيفيا قام يحمي دعوة بعد خفوت، لأن التاريخ المعروف لهذه الفترة - كما قلنا - لا يسعفنا بمثل هذه التفاصيل؛ وحيث إننا لا نجرؤ على القول بأنه كان نبيا أو كان مؤمنا بنبي فلا أقل من أن نتوقع أنه كان عاقلا مخلصا فتح عيونه وشحذ حواسه وأخلص بقلبه، فساقته آيات الله في الكون إلى أن يعتقد بالتوحيد. اسمع في هذه المناجاة وأبصر ذلك التأمل العميق:

«أنت إله، يا أوجد، ولا شبيه لك، لقد خلقت الأرض حسبما تشاء، أنت وحدك، خلقتها ولا شريك لك، والذي يذرا من البذرة أناسا، وجاعل الولد يعيش في بطن أمه، مهدئا إياه حتى لا يبكي، ومرضعا إياه حتى في الرحم، وأنت معطي النفس حتى تحفظ الحياة على كل إنسان خلقته، حينها ينزل من الرحم في يوم ولادته، وأنت تفتح فمه تماما، وتمنحه ضروريات الحياة»^(٣).

(١) من أمتع الكتب التي عرضت لتاريخ الفلاسفة كتاب ول ديورانت «قصة الفلسفة» ثم كتاب براتراند رسل «حكمة الغرب» ثم بتوسع أكثر وعبرة أكثر تعقيدا والتفافية كتاب رونالد ستروميرج «تاريخ الفكر الأوروبي الحديث». في هذه الكتب وأمثالها يمكنك أن تلتقط من تاريخ فلاسفة أوروبا في عصر ما قبل دخول المسيحية إليها كيف أن الفلاسفة الكبار كانوا على أبواب الهداية وكلامهم عن التوحيد وعن الإله وعن الأخلاق والفضيلة بلغ حدا دفع بعض المفكرين والمؤرخين لأن يعتقدوا أنهم ربما كانوا كالحفشاء العرب يحاولون بعث عقيدة دينية كانت قد اندثرت أو خفت نورها، والبعض بلغ به الإعجاب أن توقع أن بعضهم ربما كانوا أنبياء ممن لم يقصص الله علينا قصصهم في القرآن. وعلى الجانب الآخر رفض كثيرون هذا الرأي لا سيما إن كان في سياق الرد على المعجبين الذين بلغوا أحيانا مبلغا شططا في التوفيق بين الإسلام وهذه الفلسفات. انظر: د. مصطفى حلمي: الأخلاق بين الفلاسفة وعلية الإسلام ص ٣٦ وما بعدها، د. مصطفى حلمي: الإسلام والمذاهب الفلسفية ص ١٢٩ وما بعدها، د. علي سامي النشار: نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام ١/ ١٦٤ وما بعدها.

(٢) نديم الجسر: قصة الإيمان بين العلم والفلسفة والقرآن، ص ٢٨.

(٣) د. محمد عمارة: عندما دخلت مصر في دين الله، ص ٨، ٩. وهو ينقل عن: د. عبد المنعم أبو بكر: إخناتون

التأمل

لدى السلف الصالح

لئن كنا تحدثنا منذ قليل عن قوم تأملوا ولم يدركوا نور الوحي، فالآن جاء الحديث عمّن أدركوا نور الوحي وعاشوا في رحابه، فلئن كان التأمل وضع الأولين على باب الهداية، فإن هؤلاء قد تكشف لهم بالتأمل أسرار مملكة الهداية.. نورها وكنوزها وقصورها، فكانوا كما قال الله فيهم: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ [محمد: ١٧].

ويستلهم المسلمون من سير وأقوال السلف الصالح ذلك النموذج الإيماني الفريد والبلغ، فسلمنا الصالح يبدأ من صحابة رسول الله ﷺ ثم تابعيهم، وتابعي التابعين.. وهم القرون الثلاثة التي شهد لها رسول الله بأنها خير الأجيال، قال ﷺ: «خير الناس قرني ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم...» الحديث^(١). ويأتي بعد هذه الأجيال، الأفاض من العلماء والزهاد والعباد ممن شهدت لهم الأمة باستقامتهم وورعهم وتقواهم.

لقد فهم سلفنا الصالح كيف أن التأمل والتفكير فيما يحيط بالإنسان يرسم له طريق اليقين في الله، ومنه يدخل في القلب تعظيم قدر الله، ووجه وخشيته، فبه يعرف القلب حقيقة الأشياء: حقيقة الله، وحقيقة نفسه.

ولهذا كان الحسن يعتبر التأمل مرآة يعرف منها كل إنسان حسناته وسيئاته، فينقل عنه الفضيل قوله: الفكرة مرآة تريك حسناتك وسيئاتك^(٢).

وبالتأمل وصل أبو سليمان الداراني إلى درجة رفيعة، يصفها فيقول: إني لأخرج من منزلي فما يقع بصري على شيء إلا رأيت الله علي فيه نعمة ولي فيه عبرة^(٣).

(١) متفق عليه: البخاري (٢٥٠٩)، ومسلم (٢٥٣٣).

(٢) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن ٤/٣١٤.

(٣) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم ٢/١٨٤.

إن نفس هذا المعنى عبر عنه الإمام سفيان بن عيينة حين قال: الفكرة نور تُدخِله قلبك. ثم زاد هذا المعنى وضوحاً حين قال: التفكير مفتاح الرحمة، ألا ترى أنه يتفكر فيتوب. وكان -رحمه الله- دائماً يتمثل بقول الشاعر:

إذا المرء كانت له فكرة ففي كل شيء له عبرة^(١)

ونجد نفس المعنى أيضاً في ألفاظ أخرى في قول ابن عون: الفكرة تذهب الغفلة وتحدث للقلب الحشية كما يحدث الماء للزرع النبات، وما جليت القلوب بمثل الأحزان، ولا استتارت بمثل الفكرة^(٢). كذلك في قول حاتم الأصم: من العبرة يزيد العلم، ومن الذكر يزيد الحب، ومن التفكير يزيد الخوف^(٣).

وهذه هي علامات اليقين.. انظر إلى حال الصحابي الجليل أبي الدرداء الذي لما سئلت زوجته أم الدرداء عنه قالت: كان أكثر شأنه التفكير^(٤). ويبدو أن إجابة أم الدرداء استفزت السائلين، فسألوا أبا الدرداء نفسه: أفترى التفكير عملاً من الأعمال؟ قال: نعم، هو اليقين^(٥)، وكان ﷺ يقول: تفكر ساعة خير من قيام ليلة^(٦).

ولم يكن هذا حاله وحده ﷺ، بل هو المعنى العام الذي غرسه النبي ﷺ في صحابته، فعن عامر بن عبد قيس قال: سمعت غير واحد ولا اثنين ولا ثلاثة من أصحاب النبي ﷺ يقولون: «إن ضياء الإيمان أو نور الإيمان التفكير»^(٧).

ولقد فقه بشر بن الحارث الحافي أثر التأمل فقال: لو تفكر الناس في عظمة الله تعالى لما عصوه^(٨). واعتبره لقمان الحكيم طرقاً لباب الجنة فقال: إن طول الوحدة ألهم للفكرة

(١) أبو نعيم الأصبهاني: حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، ٣٠٦/٧.

(٢) البغوي: معالم التنزيل في تفسير القرآن (تفسير البغوي)، ١٥٢/٢.

(٣) الغزالي: إحياء علوم الدين ٤/٤٢٥.

(٤) أورده البيهقي في شعب الإيمان (١١٩)، وابن أبي شيبة (٣٥٧٢٩)، وأبو داود في الزهد (١٩٨)، وابن المبارك في الزهد (٢٨٦).

(٥) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن ٤/٣١٤.

(٦) رواه البيهقي في شعب الإيمان (١١٨)، وابن أبي شيبة (٣٥٧٢٨)، وأبو داود في الزهد (١٩٩)، وابن المبارك في الزهد (٩٤٩)، وغيرهم، ويُروى هذا من طرق أخرى عن ابن عباس وعن الحسن البصري.

(٧) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم ٢/١٨٥.

(٨) السابق ٢/١٨٥.

وطول الفكرة دليل على طرق باب الجنة^(١)، ورآه عمر بن عبد العزيز أفضل العبادات فيقول: الكلام بذكر الله عز وجل حسن والفكرة في نعم الله أفضل العبادة^(٢).

وعن ابن عمر رضي الله عنهما أنه كان إذا أراد أن يتعاهد قلبه - أي يرققه ويزيد الإيمان فيه - يأتي الخربة - أي المكان المقفر الخالي الخرب - فيقف على بابها فينادي بصوت حزين فيقول: أين أهلك؟ ثم يرجع إلى نفسه فيقول: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصاص: ٨٨]، واعتبر الحسن البصري أن الإسراف في الطعام قاتل للتفكير، وبهذا فسر حديث الاقتصاد في الأكل، قال: يا ابن آدم كل في ثلث بطنك واشرب في ثلثه ودع ثلثه الآخر تنفس للفكرة^(٣).

وورد عنه أيضًا ما يدل على أن حياته كلها كانت في تأمل وتفكير ونظر واعتبار، حتى أنه استنكر حال من لم يكن كذلك فقال: «من لم يكن كلامه حكمة فهو لغو، ومن لم يكن سكوته تفكيرًا فهو سهو، ومن لم يكن نظره اعتبارًا فهو هَوٌّ»^(٤)، ورؤي هذا المعنى عن سيدنا عيسى عليه السلام أنه قال: طوبى لمن كان قلبه تذكُّرًا وصمته تفكيرًا ونظره عبرًا^(٥).

وعن أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه أنه بكى يوما بين أصحابه، فستل عن ذلك فقال: فكرت في الدنيا ولذاتها وشهواتها، فاعتبرت منها بها، ما تكاد شهواتها تنقضي حتى تكدرها مرارتها، ولئن لم يكن فيها عبرة لمن اعتبر، إن فيها مواعظ لمن ادكر^(٦).

ويشرح حجة الإسلام الإمام أبو حامد الغزالي كيف يوصل التأمل إلى التقوى، فيقول: «ثمرة الفكر هي العلوم والأحوال والأعمال، ولكن ثمرته الخاصة العلم لا غير»، نعم إذا حصل العلم في القلب تغير حال القلب، وإذا تغير حال القلب تغيرت أعمال

(١) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم ١٨٤/٢.

(٢) أبو نعيم الأصبهاني: حلية الأولياء ٣١٤/٥.

(٣) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم ١٨٥/٢.

(٤) الغزالي: إحياء علوم الدين ٤/٢٢٤.

(٥) أورده ابن أبي الدنيا، نقلًا عن: ابن عساكر: تاريخ دمشق، ٤٣/٦٧.

(٦) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم ١٨٥/٢.

الجوارح؛ فالعمل تابع الحال والحال تابع العلم والعلم تابع الفكر. فالفكر إذن هو المبدأ والمفتاح للخيرات كلها، وهذا هو الذي يكشف لك فضيلة التفكير وأنه خير من الذكر والتذكر؛ لأن الفكر ذكر وزيادة، وذكر القلب خير من عمل الجوارح»^(١).

وقد سجل الإمام ابن الجوزي تجربة عملية له، قال: «عرض لي في طريق الحج خوف من العرب فسرنا على طريق خيبر، فرأيت من الجبال الهائلة والطرق العجيبة ما أذهلني وزادت عظمة الخالق عز وجل في صدري، فصار يعرض لي عند ذكر تلك الطرق نوع تعظيم لا أجده عند ذكر غيرها.

فصحت بالنفس: ويحك اعبري إلى البحر وانظري إليه وإلى عجائبه بعين الفكر، تشاهدي أهوالاً هي أعظم من هذه، ثم اخرجي عن الكون والتفتي إليه فإنك ترينه بالإضافة إلى السموات والأفلاك كذرة في فلاة، ثم جولي في الأفلاك وطوفي حول العرش وتلمحي ما في الجنان والنيران، ثم اخرجي عن الكل والتفتي إليه، فإن تشاهدين العالم في قبضة القادر الذي لا تقف قدرته عند حد، ثم التفتي إليك فتلمحي بدايتك ونهايتك وتفكري فيما قبل البداية وليس إلا العدم، وفيما بعد البلى وليس إلا التراب.

فكيف يأنس بهذا الوجود من نظر بعين فكره المبدأ والمنتهى؟ وكيف يغفل أرباب القلوب عن ذكر هذا الإله العظيم؟ بالله لو صَحَّت النفوس عن سكر هواها لذابت من خوفه، أو لغابت في حبه، غير أن الحس غلب، فَعَظُمَت قدرة الخالق عند رؤية جبل، وإن الفطنة لو تلمحت المعاني لدلت القدرة عليه أوفى من دليل الجبل»^(٢).

(١) الغزالي: إحياء علوم الدين ٤/٤٢٧.

(٢) ابن الجوزي: صيد الخاطر، ص ١٥٨، ١٥٩.

تحذير مهم

لا بد أن تتخلص منه فوراً

لم يكن ممكناً أن ننهي هذا القسم من الكتاب دون هذا التحذير الخطير والسريع في ذات اللحظة، لأن الإبحار معه يستغرق دراسة أخرى.

كل شيء في هذه الأرض وما فوقها وما تحتها وما حولها وما في جوفها وما على سطحها.. كل ما في النفس من آيات وجوارح ودلائل على الخالق الواحد تبارك وتعالى، كل هذا ينتصب خطيباً ما أبلغه، يخاطب القلوب والعقول موجهها إياها نحو الصراط المستقيم.

لكن الله تبارك وتعالى أخبرنا في آية تلقي الرعب في القلوب بأن من لم يؤمن بهذه الآيات، لن يؤمن ولو حتى فتح الله له أبواب السماء كلها ودخل فيها ورأى عالم الغيب وعالم الملائكة.. إنه حينها سيقول ببساطة: لقد سُحرت ولست في وعي، وكل ما أراه هو وهم في وهم. ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَاباً مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾ [الحجر: ١٤-١٥].

ذلك هو المعاند.. وهذا هو العناد.

تلك الصفة التي تجتمع فيها أسوأ صفات البشر من العجب والكبر واتباع الهوى والانتصار للنفس، ولذا يمكن لصفة العناد أن تعميك عن كل شيء، وعن كل آية، وعن كل إبداع.. بل وتجعلك تكفر بالله تعالى رغم كل شيء.. خطورة العناد تكمن في أنه يلغى العقل، ويضخم النفس.

ولعله من الخير أن نضرب للتذكير فقط أربعة أمثلة ترينا كيف يمكن للعناد أن يلغى صاحبه في النار من أقرب طريق وفي أسرع وقت.

١ - بعد زمن يمتلئ بنعم الله على بنى إسرائيل قال بنو إسرائيل لله جملة قصيرة تركزت فيها كل معانى الكفر والجحود.. قالوا: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ [البقرة: ٩٣]، ومن

الدهش أن نعم الله عليهم كانت في أغلبها معجزات..

لم تمض لحظات على نجاة بنى إسرائيل من قبضة فرعون التي حاصرتهم بين البحر من الأمام وبين الجنود من الخلف، وفي لحظة أو أقل تحول الماء إلى طريق صلب يابس أنجاهم به الله تبارك وتعالى من فرعون.. هو نفس الطريق الصلب الذي تلاشى في لحظة ليغرق فرعون وجنوده أمام عيونهم.. لم تمض لحظات على تلك المعجزة الرهيبة الجليلة التي أوقفت قانون الكون بل وغيرته إلى العكس.. حتى كان بنو إسرائيل يرون قوما يعبدون صنما.. صنم.. مجرد صنم.. وإذ بهم يطلبون من سيدنا موسى أن يجعل لهم إلها كإله هؤلاء القوم!!! قال تعالى: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ [البقرة: ٩٣].

ولنا أن نضع ملايين علامات التعجب على الذين يطلبون عبادة صنم بعد معجزة بهذه الضخامة وهذا الإعجاز، مما جعل سيدنا موسى يرد عليهم والدهشة تنطلق من رده كما قال الله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ * إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَّبَرِّمًا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * قَالَ أَغْيَرَ اللَّهُ آبَنِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ * وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقْتُلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِّنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨-١٤١]. ثم ما لبث أن اختفى عنهم سيدنا موسى أياما حتى صنعوا عجلا من الذهب وعبدوه فعلا.

وحينما أصابهم العطش في الصحراء جاءت معجزة أخرى، إذ ضرب موسى بعصاه الحجر فتدفق الماء من اثني عشر عينا على نفس عدد فصائلهم، واهتدى كل قوم إلى العين بهداية الله تبارك وتعالى.

ثم أنعم الله عليهم بأن يأتيهم طعامهم إلى حيث هم في كل صباح، فينزل الله عليهم شراب (المن) الذي يجمع بين اللبن والعسل، يرسله الله لهم على جذوع الأشجار فيأخذون منه كل يوم ما يكفيهم، ثم تأتيهم طيور السمان (السلوى) ليأكلونها بلا تعب ولا نصب.. فتركوا كل هذا وطلبوا من موسى ﷺ أن يدعو الله ليخرج لهم البصل والفوم والبقول والعدس.. إلخ، وما ذلك إلا لأنهم لم يثقوا في الله تبارك وتعالى واستمرار هذه النعم.

فلما طلب الله منهم أن يقاتلوا في سبيله ووعدهم بالنصر، قالوا كلمتهم التي لا يمكن أن تخرج من إنسان مؤمن ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٤]. وهكذا كانت حياتهم، معجزات لا تقبل جدلا ولا مناقشة، وتزرع الإيمان في أقسى قلب، لكنهم بعنادهم كانوا يقابلون كل معجزة بمعصية وكفر.

حتى قالوا: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾.. هكذا بكل مباشرة وبكل وقاحة ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاَسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ [البقرة: ٩٣].

إن الذهول يضرب كل أرجاء النفس أمام هذه الآية، حتى لا تجد النظرات إلا البلاهة تعبر بها عن دهشة ساحقة.. ماذا كانت تلك القلوب التي تجرأت لا على التفكير بل على النطق بهذا؟؟.. أى شيطان هذا الذي امتلك هذه القلوب، فأعماها وأقساها وفرض عليها انغلاقا ليس له جزاء إلا غضب الله وعقابه وناره وعذابه الخالد؟؟؟

إلا أنهم وفروا علينا عناء تفسير مشاعر قلوبهم.. إذ قالوا بنفس البساطة والجحود (قلوبنا غُلف).. أى أن قلوبنا مغلفة ومحاطة بالأغشية. ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٨٨]. هذا شيء مما يفعله العناد.

٢- أتى رسول الله ﷺ بمعجزات باهرة كدليل من الله على صدقه، ودعا إلى الله في قريش، وكذبوا ولم يمل من الدعوة.. هددوه.. عذبوا صحابته.. آذوه.. وما زال يدعوهم.

أغروه بالملك والرئاسة والنساء وبالمال.. فرفض وما زال يدعوهم.

لم يشنه لا الترغيب ولا التهيب.. وهو الصادق الأمين العفيف.. وهو الذي لم يكذب في شأن الدنيا ولا على أحد من أهل الدنيا.. وما زال يدعوهم.

جادلوه فأفحمهم، وكذبوه فصبر، وعذبوه فتحمل، وآذوه فكان كالجبل.

كان معه قرآن عجزوا عن الإتيان بمثله وهو الأمى الذي لم يكن يقرأ ولا يعرف بالبلاغة ولا ينظم الشعر.

شق أمامهم القمر.. ووصف لهم بيت المقدس ولم يذهب إليه من قبل.

بعد كل هذا.. ترى كيف يكون الرد، وما هو الموقف؟؟؟

انظر كيف يقلب العناد كل منطق ليتكلم المعاند بالجنون ذاته.. ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجَلْنَا
قِطْنًا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ [ص: ١٦]. إنهم يستعجلون العذاب قبل أن يأتي يوم الحساب..
أى خطأ و جنون هذا؟؟؟؟!!!!!!

فقال الله تعالى: ﴿أَقْبِعْ دَائِبَنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ [الصفات: ١٧٦] ذلك العذاب الرهيب
الكاسح الذي إذا ﴿نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ﴾ [الصفات: ١٧٧].

بل تعجب أكثر حين تقرأ هذه الآية: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ
عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢]. «وهو دعاء
غريب؛ يصور حالة من العناد الجامح الذي يؤثر الهلاك على الإذعان للحق، حتى ولو
كان حقًا! إن الفطرة السليمة حين تشك تدعو الله أن يكشف لها عن وجه الحق، وأن
يهدئها إليه، دون أن تجد في هذا غضاضة. ولكنها حين تفسد بالكبرياء الجامحة تأخذها
العزة بالإثم، حتى لتؤثر الهلاك والعذاب على أن تخضع للحق عندما يكشف لها واضحا
لا ريب فيه.. وبمثل هذا العناد كان المشركون في مكة يواجهون دعوة رسول الله»^(١).

لا شيء غير الذهول يمكن أن يصيب الإنسان إزاء هذا الدعاء الذي لا يمكن أن
يكون صدر عن إنسان عاقل أصلا.. لكنه العناد، إذا أصاب القلب ظل فيه يتكاثر
ويتكاثر حتى لا يترك للهداية مكانا مهما يكن ضئيلا.

٣- اجتمع نفر من زعماء قريش وهم (عتبة وشيبة ابني ربيعة- وأبو سفيان بن حرب
- ورجلان من بني عبد الدار- وأبو البختری - والأسود بن المطلب بن أسد - وزمعة بن
الأسود- والوليد بن المغيرة - وأبو جهل بن هشام - وعبد الله بن أبي أمية بن خلف -
والعاص بن وائل - ونيبه ومنبه ابني الحجاج السهميين)

فعرضوا على النبي ﷺ المال والملك والزعامة والنساء والنفوذ، فلم يفلحوا.. فطالبوه

بأن يوسع لهم الجبال عن مكة ويفجر لهم فيها الأنهار.. ثم يبعث لهم من مات من شيوخهم وعلى رأسهم الحكيم قصي بن كلاب ليسأله عن رأيه في هذا الذي يقوله محمد أصدق هو أم كذب.. أو يتحول محمد إلى رجل بالغ الثراء يملك الكنوز والقصور والذهب والفضة والجنان.. أو يسقط السماء عليهم أحجارا.. ثم اتهموه بالعمالة لجهة خارجية فقالوا: قد بلغنا أن من يُعلمك هذا رجلٌ في أرض اليمامة يسمى (الرحمن).. وأنا لن نؤمن بالرحمن أبداً.

ولاحظ كيف أنهم حين سألوه أن يبعث موتى شيوخهم، لم يروا في هذا دليلاً كافياً على نبوته، بل إنهم سيسألون هؤلاء المبعوثين ما رأيهم في محمد!!!!!!
اللهم إنا نعوذ بك من هذا العناد، ومن قسوة القلب.

لكن القصة لم تنته بعد، لقد بقى أطرف جزء فيها، أو قل الجزء الصارخ الذهول الهائل الغرابة.. إذ انبرى ابن عمه النبي ﷺ واسمه عبد الله بن أبي أمية ليقول: طلب منك قومك كذا وكذا وكذا ليثبت لهم أنك صادق، فلم تفعل.

- فوالله لا أؤمن بك حتى ترتفع أمامي إلى السماء..
وتأتي من السماء بصحيفة منشورة..

ويأتي معك أربعة من الملائكة يشهدون معك على صدقك..

ووالله لو فعلت كل هذا فلا أظن أنني سأؤمن لك.

يا الله!!! يا الله!!!... يا الله!!!

ماذا أصاب هذه القلوب؟؟.. لا بل هذه العقول؟

إن مجرد الارتفاع في السماء لا يكفي..

ثم النزول منها بوثيقة تصدق محمداً لا يكفي أيضاً..

لا بد أن يرتفع في السماء، ثم ينزل منها، ومعه الوثيقة، ومعه ملائكة أربعة كشهود..

ثم كان الرجل صريحاً مع نفسه، حين قال، وإن حدث هذا فلا أظن أنني سأؤمن بك^(١).

قال تعالى: ﴿قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيرًا * أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمَتْ عَلَيْنَا مِثْفَاءً أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قِيبِلًا * أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرَفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُؤْيَاكَ حَتَّى تَنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾

[الإسراء: ٩٠-٩٣].

يقول الإمام ابن كثير: «وهذا المجلس الذي اجتمع هؤلاء له لو علم الله منهم أنهم يسألون ذلك استرشادا لأجيوبوا إليه، ولكن علم أنهم إنما يطلبون ذلك كفرا وعنادا. فقيل لرسول الله ﷺ: إن شئت أعطيناهم ما سألوا، فإن كفروا عذبتهم عذابا لا أعذبه أحدا من العالمين، وإن شئت فتحت عليهم باب التوبة والرحمة. فقال: بل تفتح عليهم باب التوبة والرحمة كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأُولُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ [الإسراء: ٥٩]»^(١).

٤- موقف حبي بن أخطب. روت صفية بنت حبي بن أخطب أنها قالت: كنت أحبّ ولد أبي إليه، وإلى عمي أبي ياسر، لم ألقهما قط مع ولد لهما إلا أخذاني دونه. قالت: فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة ونزل قباء في بني عمرو بن عوف غدا عليه أبي حبي بن أخطب، وعمي أبو ياسر بن أخطب مُغَلَّسِينَ، قالت: فلم يرجعا حتى كانا مع غروب الشمس، قالت: فأتيا كائين كسلانين ساقطين يمشيان الهويني. قالت: فهششت إليهما كما كنت أصنع، فوالله ما التفت إليّ واحد منهما، مع ما بهما من الغم. قالت: وسمعت عمي أبا ياسر، وهو يقول لأبي حبي بن أخطب: أهو هو؟ قال: نعم والله، قال: أتعرفه وتبته؟ قال: نعم، قال: فما في نفسك منه؟ قال: عداوته والله ما بقيت^(٢).

إننا هنا في مشهد مختلف تماما، حيث نحن بإزاء رجل يهودي قد رأى النبي ﷺ، وهو موصوف عندهم في الكتب السابقة، وعرفه بمجرد أن رآه، وكان متأكدا منه بدون أدنى شك، حتى إن أخاه أبا ياسر حين أعاد عليه السؤال للتأكد ولزيد من التأكد: أهو هو؟

(١) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم ٥/١١٩، ١٢٠.

(٢) ابن هشام: السيرة النبوية. ٣/١٤٦، ١٤٧. (وفي سند الخبر انقطاع).

قال حبي في ثقة: نعم والله.

قال أبو ياسر: أتعرفه وتثبته؟

قال حبي: نعم.

لكن حبي بن أخطب بعد أن عرف أن هذا الذي رآه هو نبي من عند الله، وبالتالي فهو يعرف يقينا أن الحق مع هذا النبي، وأن النجاة في الدنيا وفي الآخرة من العذاب، وأن دخول الجنة، ونيل كرامة السبق إلى الإسلام في العالمين في الدنيا وعند رب العالمين في الآخرة.. يعرف أن كل هذا في اتباع هذا النبي والإسلام معه.

لكنه في عناد غير مبرر ولا معقول، ينوى أن يعاديه.. ليس فقط يعاديه.. بل ينوى أن يستمر في هذا العداة طول حياته.

ولا حول ولا قوة إلا بالله..

وحدث ذلك بالفعل، واستمر حبي بن أخطب من موقعه في (خير) المدينة اليهودية بالحجاز يخطط ويدبر ويحيك المؤامرات للنبي ﷺ، ويستقبل اليهود فيخطط معهم ويؤلب قبائل العرب على الدولة الإسلامية.. حتى كان عام ٧ من الهجرة حين قرر النبي ﷺ فتح خير، وإنهاء مصدر هذه الفتنة، وفي هذه الغزوة قُتل حبي بن أخطب كافرا.

من تلك الأمثلة السابقة وغيرها يتأكد لنا أنه حين يدخل العناد إلى القلب، فإن هذا يعني بتلقائية خروج الإيمان، بل وإغلاق القلب أمام هذا الإيمان فلا يستقبل منه شيئا.. مهما كانت الدلائل والآيات من حوله تؤكد وتدعم هذا الإيمان، بل ومهما حدث له نفسه من معجزات مبهرة.. إنه العناد الذي يمكن أن يدخلك النار من أقصر طريق وفي أسرع وقت، فإنه يمنع حتى العقل من التفكير السليم.

فإذا ختم الله على القلب، فقد تحول إلى قلب لا يخرج منه الكفر، ولا يدخل إليه الإيمان.. وحين يُختم على القلب يختم كذلك على الأذن، وكذلك على العين.. فلم يعد الإنسان مستعدا لقبول هداية، فسواء جاءهم الإنذار أو لم يبلغهم.. لم يكونوا ليؤمنوا.. كما

أخبرنا الله عن الكافرين فقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٦٠﴾ حَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿البقرة: ٦٠-٧٧﴾. إن الهوى يعمى ويصم ويغشى الإنسان حتى لا يترك له طريقا، وهذا النوع من الناس ساهم الله في القرآن عباد الهوى الذين اتخذوا الهوى إلها.. فأعماهم ذلك عن كل آية أبدعها الله.. ﴿أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ ﴿٦٠﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَمَا لَأَنْعَامٍ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ ﴿٦١﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسُ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ ﴿٦٢﴾ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾ ﴿٦٣﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِيَأْسَا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا﴾ ﴿٦٤﴾ وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾ ﴿٦٥﴾ لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنْبِيَّ كَثِيرًا﴾ ﴿٦٦﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِيهِمْ لِيَذَكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ ﴿الفرقان: ٤٣-٤٩﴾. وقد ينعم الله على إنسان بهذه الهداية، لكن العناد واتباع الهوى، ينسف كل هداية.. ولقد قص الله علينا قصة عبد كان عالماً عارفا آتاه الله من آياته وعلمه من علمه، ولكنه أغري بالمال والدنيا فكفر بسيدنا موسى، وقاتله وانضم لأعدائه.. ﴿وَإِنل عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ ﴿٦٧﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثُ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثُ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ ﴿الأعراف: ١٧٥-١٧٦﴾.

ولهذا كان شرطا أساسيا في أن يستقبل قلبك الإيحاء المناسب إليك من التأمل في النفس وفي الكون وفي التاريخ وفي أسماء الله - تبارك وتعالى - وصفاته.. أن يخلو من هذا العناد والإصرار.

لابد أن تعود نفسك على التجرد والانحياز للحق ولو كان ليس في صفك، وأن ترجع عن الخطأ وأن تسير خلف الحق أينما كان.. فهذا - بإذن الله - هو شرط دخول الإيحاء إلى قلبك.



الباب الثالث

تعال نتأمل قليلا

١- للتأمل مجالات عديدة.

٢- تعال نتأمل قليلا.

للتأمل مجالات عديدة

فيا عجباً كيف يعصى الإله أو كيف يجحده الجاحد؟
وفي كل شيء له آية تدل على أنه الواحد

إن الله تبارك وتعالى آية في كل شيء خلقه من حولنا، في السماء والأرض.. في النفس والروح والعقل والجسد.. في البحار والأشجار والأمطار والجبال..

بل في الشجرة الواحدة تكمن أنهار الآيات والدلائل من جذوعها وثمارها وأغصانها وأوراقها..

بل في ذات الورقة التي لم نعرف إلا منذ أعوام أنها مصنع كبير لامتصاص الهواء الملوث من الجو، وإعادة إنتاج هواء نقي، فالورقة صارت مصنعا كبيرا يقوم بمثل هذه المهمة الحيوية في حياة الكائنات التي تتنفس الهواء.

وهذا يستدعى تعمقا آخر في ذلك المصنع الكبير لنرى كل جزء منه كيف يقوم بالعمل، فتوجد وحدات التغذية، ووحدات استقبال الشمس، ثم وحدات التجميع، ثم إعادة الإنتاج للهواء النقي في عملية تمثل خط إنتاج بالغ الدقة.. وبالغ الصغر في ذات الوقت.

ومن يدري ما الذي ستكشفه الأيام فيما بعد في شأن هذه الورقة الصغيرة من أوراق الشجر.

إلا أن التأمل لا يقف عند الحد الخارجي.. إنما يمتد ليغوص في إبداعات هذه المملكة التي تسمى بالإنسان.

والإنسان كما هو معروف (روح وعقل وجسد ونفس)... أو (روح ونفس وجسد).. أو (روح وجسد).. كل هذه تقسيمات واحدة في المعنى، لكننا سنلاحظ أن الجسد قد انقسم إلى أقسام كثيرة، لا أعرف عددها على وجه التحديد، وصار علم الطب علما بالغ الدقة في كل جانب.

فهذا الجسد الصغير، هو شكل مُرَكَّز لمدينة صناعية كاملة، يبحث العلم في جوانبها..

فهذا علم لا يبحث إلا في العيون.. العيون فقط، وذلك للأذن.. ثم الأعصاب.. والصدر.. والباطنة.. والعظام.. والجلد.... إلخ.

وفي عصرنا الحديث تم تفتيت هذه التخصصات لأنها في حد ذاتها تنفجر كل يوم بالجديد المبهر الذي يتعدى قدرة البشر على متابعة الكل في وقت واحد.. فيلجأون للتقسيم مرة أخرى؛ فالعين وحدها قد انقسمت إلى أقسام للقرنية والشبكية والأعصاب.. وهكذا باقى التخصصات التي تكبر وتتسع في كل يوم.. ثم لا تلبث إلا أن تكبر وتمدد وتتسع.

كل هذا ونحن ما زلنا في القسم الجسدى من الإنسان..

أما الجانب النفسى أو العقلى أو الروحى، فهو الذي يمثله اليوم علم النفس الذي يعد من العلوم العميقة والواسعة والتي تكتشف في كل حادثة وفي كل جريمة وفي كل حالة جانبا آخر من جوانب تلك النفس الإنسانية.

لا يقف التأمل عند هذا الحد أيضًا.. إنه ينطلق عبر الزمان ليصبح تأملا في مسيرة التاريخ، وأحوال الأمم السابقة.. كيف كانت تعيش؟ كيف كانت تدير حياتها؟ كيف انتهت وانتهى أثرها من التاريخ؟

إنه تأمل في محاولة اكتشاف تلك القوانين العليا التي تحكم هذا الكون، وتحكم حركة الحياة والأحياء فيه.. محاولة استبصار نتائج التجربة الماضية حتى نستفيد منها؛ فندخل التجربة واثقين أو لا ندخلها إن ثبت فشلها، أو نُعدّل فيها نراه نقصا فيها.

لا يقف التأمل عند هذا الحد كذلك.. إنه ينطلق خارج حدود الزمان وحدود المكان، ليتأمل في صفات الإله الذي أنشأ هذا الكون، وأودع فيه كل هذه الطاقات والإمكانات، فجعل كل شيء فيه ينطق بالقدرة والدقة وفي نفس اللحظة ينطق بالإبداع وبالرحمة.

كما أن من المثير للدهشة واللافت للنظر أن الأشياء في هذا الكون لا تقوم بعملها ولا تؤدي مهمتها في ثبات روتينى، بل هي تغلف كل هذا بلمسة جمالية تبهر النفس لا تقل أهمية عن المهمة الكونية التي تبهر العقل.

«إن الجبال لا تكتفى بأن تكون جبالا، ولكنها تكون جميلة ورائعة مكسوة بالثلوج،

أو مكسوة بالغايات! إن السحاب لا يكتفي بأن يكون سحابًا يحمل الماء، ولكنه كذلك يكون جميلاً بأشكاله وألوانه، ثم ينتشر عليه في بعض الأحيان، طيف الشمس (قوس قزح) في منظر رائع جميل! إن النبات لا يكتفي بأن يكون نباتًا، ولكنه يُورق ويزهر، ويستمتع منه الإنسان بزهره الأريج وشكله البهيج! إن الطير لا يكتفي بأن يكون طيرًا، ولكنه يسقسق يغرد ويلعب ويقفز، وتزهو منه الألوان! إن الحيوان لا يكتفي بأن يكون حيوانًا، ولكنه يقفز ويمرح، و«يتخابث» في لطف ويُستألف للإنسان»^(١).

وهكذا مخلوقات الله تقوم بعملها في لمسة مبدعة.. زقزقة العصافير.. ألوان الفراشات.. جمال وتنوع الأشجار.. المنظر الرائع للفاكهة والذي يمتع العيون قبل أن يشبع الجسد.... إلخ.

أى يد تلك التى صاغت كل هذه الحكمة، المغلفة بكل هذا الجمال؟

أى قدرة تلك التى أمسكت السماء والأرض والنجوم والكواكب لتدور في نظام

ثابت راسخ لملايين السنين؟

إنه تأمل في صفات الله تبارك وتعالى، تأمل يرى في كل شيء، وفي كل واقعة طرفا من

عظمته، ومن رحمته، ومن قدرته.. هكذا في لحظة واحدة، تلقى إليك الحادثة الواحدة

بسبب من معانى صفات الله في نفس اللحظة. وسبحان الله العلى العظيم.

وإذا أردنا تصنيف المجالات التى دعانا الله للتأمل فيها، حسبما هى موجودة في

القرآن المكي، وجدناها:

(١) التفكير في الكون

(٢) التفكير في النفس

(٣) التفكير في القرآن.

(٤) التفكير في التاريخ

(٥) التفكير في أسماء الله وصفاته

(٦) التفكير في نعم الله.

فهذه الأشياء الستة التى عاجلها القرآن الكريم في العهد المكي، حتى يزرع الإيمان في نفوس

الناس، فخرج من هؤلاء أنقى جيل عرفته الأرض، صفاء وطهرا وفداء وشجاعة نادرة.

تعال تتأمل

لا شك في أن موضوع هذا الفصل من الكتاب هو أوسع من قدرة البشر جميعا على استيعابه، وما زال العلم يكتشف، والأبحاث تصدر، والكتب والدراسات تنشر.. وستظل كذلك إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

فليس هناك انتهاء لآيات الله أبدا ﴿سُنُرِهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمُ اللَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣].

ولو تحولت كل هذه البحور والأنهار والمحيطات إلى حبر ليكتب آيات الله وإبداعاته لتفدت هذه الأحبار، قبل أن تستوعب كل آيات الله، ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفَذَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ [الكهف: ١٠٩]. لذا سنكتفي بمثال واحد في كل مجال من مجالات التأمل، لكن يجب أن يكون معروفا أن التأمل لا يؤتى أثره من خلال القراءة.. إنما من خلال المشاهدة والرؤية، والتفاعل الطبيعي مع الآيات.. قد تفتح الكتابة فكرة أو تلفت النظر إلى جانب، أو تلقى الضوء على جزئية.. لكن الرؤية المعينة تظل الوسيلة الطبيعية للتأمل.

ولهذا المعنى تحديدا كان العلماء هم أحق الناس وأولاهم بالخشية من الله تعالى، لأن عملهم هو التأمل، فهم في تأمل وتفكر ورصد دائم للحقائق التي هي في الحقيقة رسائل ربانية، كانت منشورة ومتخفية في ثنايا هذا الكون الفسيح، ثم ظهرت لهم مع البحث والتأمل والتفكير، فكانوا أول من يطالعونها ويقرأونها، ولهذا ذكر الله تعالى بعد آياته في الكون هذه الحقيقة، لأنه «كلما كانت المعرفة للعظيم القدير العليم الموصوف بصفات الكمال المنعوت بالأسماء الحسنى - كلما كانت المعرفة به أتم والعلم به أكمل، كانت الخشية له أعظم وأكثر»^(١).

(١) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم ٦/٥٤٤.

قال جل وعلا: ﴿أَمْ تَرَى أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيْضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ النَّاسِ وَالْدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾

[غافر: ٢٧-٢٨].

«هذا الكتاب الكوني الجميل الصفحات العجيب التكوين والتلوين، يفتحه القرآن ويقلب صفحاته، وهذه الصفحات التي قلبها في هذا الكتاب هي بعض صفحاته، والعلماء هم الذين يتدبرون هذا الكتاب العجيب. ومن ثم يعرفون الله معرفة حقيقية. يعرفونه بآثار صنعته. ويدركونه بآثار قدرته. ويستشعرون حقيقة عظمته برؤية حقيقة إبداعه. ومن ثم يخشونه حقًا ويتقونه حقًا، ويعبدونه حقًا، لا بالشعور الغامض الذي يجده القلب أمام روعة الكون، ولكن بالمعرفة الدقيقة والعلم المباشر.. وهذه الصفحات نموذج من الكتاب.. والألوان والأصباغ نموذج من بدائع التكوين الأخرى، وبدائع التنسيق التي لا يدركها إلا العلماء بهذا الكتاب. العلماء به علما واصلا. علما يستشعره القلب، ويتحرك به، ويرى به يد الله المبدعة للألوان والأصباغ والتكوين والتنسيق في ذلك الكون الجميل»^(١).

ولأجل هذا اليقين الذي يسكن قلب العالم المتلقي لآيات الله وإعجازه كان الفارق الهائل في الفضل بينه وبين العابد، لأن الأمر ليس بعمل الجوارح، وإنما السير سير القلوب.

قال ﷺ: «فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب»^(٢).

وذكر لرسول الله ﷺ رجلان: أحدهما عابد والآخر عالم. فقال رسول الله ﷺ: «فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم»^(٣).

(١) سيد قطب: في ظلال القرآن ٥/٢٩٤٣.

(٢) رواه أبو داود (٣٦٤١)، والترمذي (٢٦٨٢)، وابن ماجه (٢٢٣)، وصححه الألباني في تعليقه على أصحاب السنن.

(٣) رواه الترمذي (٢٦٨٥) وصححه الألباني في تعليقه على سنن الترمذي.

(١) التفكير في الكون:

شاء الله لى أثناء إعدادى لهذا الكتاب أن أزور - على غير ترتيب مسبق - متحف (الصيد) فى متحف قصر النيل بالنيل فى القاهرة، وفى هذا المتحف عدد من الطيور والحيوانات التى يمكن صيدها، وأدوات الصيد فى العصور المختلفة ومناطق انتشار الحيوانات والطيور فى مصر.

وفى هذا المتحف رأيت - لأول مرة - أنواعا من الطيور والحيوانات لم أرها من قبل رغم غرامى بعالم الحيوان، والموجود فى المتحف ليس كمية كبيرة، لكن كل واحدة منها يعبر عن عالم من الأنواع والفصائل.. ما بين طيور ذات مناقير طويلة جداً، إلى متوسطة الطول، إلى القصيرة، إلى التى لا تكاد تُرى مناقيرها، وما بين الجوارح والمستأنس والمنفصل عن عالم البشر.

إن محاولة وصف هذه الحيوانات والطيور هى محاولة حمقاء، لأن البشر بطبيعتهم لا يستطيعون وصف الجمال ولا الغرابة.. لأنه إحساس وشعور، والكلمات مهما كانت بلاغتها لا يمكن أن تنقل المشاعر والأحاسيس.

من يستطيع وصف طعم التفاحة؟.. إنها لذة وإحساس وتذوق لا يمكن وصفه بحال.. إنها من ذاق عرف.. وهكذا كل إحساس، تستطيع - إن أوتيت البلاغة - أن تُفهم السامع أو القارئ لمحة منه، غير أنه لا يستطيع أن يستقبل نفس ما تحاول أن تنقله إليه من إحساس.

رهة يرتجف لها القلب، كلما أدرك أن العالم أكبر مما كان يتصور، وأنه يحوى من أنواع الحيوانات والطيور ما لم يكن يتخيل.. وأن كل هذه الكائنات ومعها الحشرات والهوام، ثم البكتيريا والفطريات والجراثيم والكائنات المجهرية التى لم نرها إلا بعد اختراع المجهر الكبير.. كل هذه الكائنات تقع فى نطاق علم الله المحيط الدقيق، وقد تكفل لها الله بالرزق وبالحياة، وألهم غرائزها طرق معيشتها وأساليب اصطيادها لغرائسها، وأساليب هروبها من مفترسيها، وحيل تضليلها لأعدائها.

وما بين كائن يسد الأفق ويُلقى صوته - مجرد الصوت - الرعب فى القلوب، إلى

كائن آخر لا يُرى بالعين.. عوالم وعمالك تمتلئ بها هذه الأرض التي لا نرى نحن منها إلا عالم المال والشهوة.

عوالم كمالك النحل وقرى النمل، وأسراب لا تنتهى من طيور مختلفة الألوان والأشكال والأحجام والأرزاق وسبل المعيشة ووظائفها في الحياة، وحيوانات تكبر وتصغر، وتفتُرس وتُستأنس، وأخرى مسخرة للإنسان، وأخرى تهدده، وأخرى يهددها، وزواحف تصغر وتكبر وتتفاوت في الضرر والخطورة.. بانورااما هائلة يعرضها الكون في صفحة الحياة الدنيا، أينما توجهت بعينيك رأيت مشهدا لا يقل إبهارا عن سابقه وعن لاحقه..

كل هذه الكائنات يشملها علم الله الذي قال: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [هود: ٦]. انظر في صفحة السماء السوداء التي تتلألأ فيها النجوم، التي تجبو حين يطلع القمر قليلا.. هذا المشهد هو من المشاهد التي لا يعرفها أهل المدن التي تزخر بالإضاءة الصناعية.. إنها روعة لم يدقها إلا أهل الصحراء وبعض أهل القرى البعيدة.

تلك الشمس التي لم تغب يوما واحدا عن ميعادها، ورغم ما في هذا المشهد من استمرارية إلا أن هذه الاستمرارية هي سر من أسراره وإعجاز من إعجازاته.. هل هناك آلة من آلات البشر استمرت طول عمرها تعمل بلا كلل ولا ملل ولا مشاكل؟؟

إذا وقفت أمام البحر أو النهر.. تأمل ما هي تلك القوة التي تُجْري هذه المياه بمثل هذه السلاسة والرقّة.. والانتظام الراسخ أيضًا؟؟ ومنذ متى وهذا البحر يجرى، أو هذا النهر يسرى؟؟

ذلك مشهد آخر لا ينفع معه الوصف، ولا بد من التجربة..

انتظر.. نحن مازلنا على السطح، نحن عند الغلاف الخارجى الذي هو سطح البحر والنهر، لكنه غلاف يغطى تحته مملكة أخرى تسمى (عالم البحر).. وهو كعالم البر تماما.. لكنه خلق آخر، ومعيشة أخرى، وأسلوب حياة مختلف تماما.. حتى طرائق الأكل والتنفس والتكاثر، كلها دفقات إبداع جديدة متجددة لا تنتهى.

خلق آخر، يعيش في بيئة أخرى، تحت سطح الماء، خلق الله له من الجوارح ما يمكنه من التنفس من تحت الماء ومن السباحة فيها ببساطة، كما أى مخلوق فوق الأرض يشق الهواء حين يسير دون أن يشعر بأذى معاناة.

ثم عوالم أخرى تحيا خارج هذا الكوكب.. نجوم ومجرات وشهب ونيازك ومذنبات وغلالات من الغبار الكونى.. صور لا نهاية لها من عالم المادة وتفاعلاتها مما لا تحتمله الأرض.. انفجارات مستمرة على سطح يفور بالاشتعال.. إنها الشمس التى هى نجم متوسط من بين النجوم، وفي الكون نجوم عملاقة في منتهى الضخامة.. والشمس في حد ذاتها فقط تستوعب مليون كرة أرضية كتلك التى نعيش عليها.

أذكر أنى طالعت موسوعة علمية تتحدث عن النجوم ونسبها فيما بينها، وقد كانت الشمس بالنسبة لنجوم عملاقة أكبر من نسبة الأرض إلى الشمس.. أى أن هناك بعض النجوم تستوعب مليوناً من شمسنا المعروفة.

شمسنا ومجموعتها الكوكبية وهى الكواكب التى انجذبت للقوة الجاذبة لشمسنا هى جزء في غاية الضآلة من المجرة التى تضم ملايين المجموعات الشمسية لتدور حول مركز المجرة في صورة مكبرة للمجموعة الشمسية، والمجرة بدورها تدور في أفلاك متناهية الضخامة والشمسوع.

يمكن أن نستشعر شيئاً من ضخامة هذا الكون، حين نعرف أن الزمن يقاس فيه بالسنة الضوئية.. الضوء ينتقل مسافة ٣٠٠٠٠٠٠ (ثلاثمائة ألف) كيلو متر في الثانية الواحدة.. أى أن انطلاق الضوء من مصدر معين إلى نقطة تبعد عن هذا المصدر بثلاثمائة ألف كيلو متر يحدث في ثانية واحدة.

وبإجراء الحسابات المعتادة نجد أن الضوء يقطع في السنة مسافة ٨٧٠٩١٢٠٠٠٠٠٠٠ (٨ تريليون وسبعمائة وتسعة آلاف ومائة وعشرين مليوناً) من الكيلومترات.

هذه هى المسافة التى يقطعها الضوء في سنة كاملة تقريباً، وبعض النجوم يصل إلينا ضوءها بعد ملايين السنين الضوئية، ولربما كان النجم قد انفجر وانتهى منذ ملايين

السنين ومازال ضوؤه لم يصل إلينا بعد.. أضف إلى هذا أن الكون دائم الاتساع كما ثبت ذلك علمياً.

مشهد المجموعة الشمسية والنجمية هو بذاته يحدث في أدق صور المادة، حيث الذرة التي تتكون من نواة متناهية الضآلة تدور حولها إليكترونات في مدارات ثابتة، وتختلف كل مادة عن الأخرى في عدد الإليكترونات التي تماثل عناصر في النواة تسمى (البروتونات).. فالمادة تختلف خصائصها تماماً بزيادة إليكترون واحد أو بنقص إليكترون واحد لتعطي مادة أخرى مغايرة.

أضف إلى كل هذا ما اكتشفه العلم الحديث من طاقات يزخر بها الكون كالطاقة الكهربائية والمغناطيسية والحرارية، ونظام الضغط الجوي، والتوازن البيئي، وغير كل هذا مما كان يزخر به الكون ولم يكن معروفاً، وحين اكتُشف غير وجه الحياة تماماً.

إننا بإزاء كون ينطق بالدقة من أعلى وأضخم مشاهدته إلى تلك التي تتناهى في الصغر ولا ترى بالعين البشرية.. والتأمل في مثل هذا يلقي إلى القلب موجات من الرهبة الهادرة المجلجلة الصدى، وموجات من الخشوع الساكن المندهش المبهور، هذه المشاعر هي أصدق تقييم لوصف هذه الضآلة والتقزم الحقيقي لهذا الكائن الذي يسمى الإنسان، فهو بالنسبة للكون لا يزيد أبداً عن حبة رمل واحدة بالنسبة لهذه الأرض كلها، بل لعله أقل من هذا بكثير.

وربما كان هذا الشعور بحقيقة ضعف الإنسان وصغره وضآلته، هو المدخل الطبيعي لكي يستشعر به عظمة الله تبارك وتعالى وسعة علمه وإحاطته بالذرة والمجرة وما أصغر من ذلك وما أكبر مما نعرف وما لا نعرف.. وهو كذلك المدخل الطبيعي لكي يشعر بحاجته الماسة إلى الله، وانكساره وذله بين يدي الله تبارك وتعالى.

وكل هذه اليقينيّات هي من مبادئ الإيمان.

٢) التفكير في النفس:

والنفس ليست فقط الجانب الجسدى الذي يبحثه الطب ويتضمخ فيه كل يوم، بل

هو كذلك الجانب الروحي أو النفسى الذي يتضخم فيه أيضًا علم النفس.

أليس مثيرا للدهشة أن هذا الجسم الصغير ما يزال يعطى للعلم اكتشافات جديدة في

كل ساعة!!؟

ثم - وهذا هو الأعجب - أنه يعطى مع كل اكتشاف جديد إثباتا جديدا يقول: بأنه ما يزال يمتلىء بإبداعات لم تُكشف بعد.. فمع كل معلومة جديدة يكتشف العلماء أن الجسم البشرى أوسع وأكثر تعقيدا مما كانوا يظنون.. مما يجعلنا ندور في دائرة تتسع في كل لحظة.. ويحمل كل اكتشاف جديد ما يفيد بأن هناك مزيد.

وهذا ما يؤدي إلى أن العصر الحديث لم يعد كسابقه يقتصر على أطباء العيون أو الجهاز الهضمى أو الأمراض الجلدية أو... أو... أو... إلخ، بل إن هذه التصنيفات نفسها قد تم تقسيمها داخليا ليظهر لنا الطبيب المتخصص في عنصر واحد من العناصر التى تكون العين، أو عضو واحد من أعضاء الجهاز الهضمى، أو جزء معين من أجهزة الجهاز العصبى.

ثم إن هذا التفرع داخل التخصصات قد أظهر احتياجا إلى فكرة الفريق لا الطبيب الواحد، لأن هذا الجزء الضئيل يحتوى على علوم كيميائية وحيوية وعلوم ذات طبيعة خاصة.. لا يُجدى معها الطبيب ذو التخصص الواحد.

إننا أمام مملكة كاملة، وليس هذا مبالغة، بل هو بالفعل ظلم لوصف نهر الإبهار المنهمر مع الاكتشافات العلمية الحديثة.

مملكة بها أقسام محددة وواضحة:

- الجهاز الهضمى: هو الذي يستقبل الطعام من الخارج ليدخله في سلسلة من العمليات اتى تبدأ بالقطع والتجهيز من خلال إفرازات خاصة في الفم، ثم ينزلت نحو المعدة عبر طريق معد ومهد ولا يدخله شيء آخر، ولا هو مجهز لشيء آخر، وأعنى المريء.. الذي ينقله إلى المعدة لتبدأ مراحل الهضم في جديدة ودأب وصمت، ثم تستقبله الأمعاء عبر منحنى (الاثنى عشر) لتبدأ في تحويله إلى الدم، وهو النهر المنتشر في كل الجسم

ينقل إليه الطاقة والحرارة التي أمده به الطعام، ثم تبدأ الأمعاء في حركة تلقائية بعزل العناصر الضارة في صوامع أخرى يطلق عليها (الأمعاء الغليظة) التي تذهب بها خارج الجسم.

ليس هذا إلا الوصف العام والبدائي جدًا لعملية الهضم، ففي كل مرحلة أسرار أخرى وعناصر إبهار أخرى..

لكن العملية كلها تجري في صمت تام وهدوء تام، وبدأب شديد، بل وبدون أي إحساس من قبل الإنسان نفسه الذي يكون مشغولاً - وكل هذه الأجواء تتفاعل داخله - في النوم أو في القراءة أو في العمل أو في الاستمتاع بأي شيء.

أتذكر الآن ملحوظة لصديق فاضل، وهي رغم روعتها في حد ذاتها، إلا أن حيويتها في أنها تلقى الضوء على منطقة لم يطرقتها أحد، قال: من الأشياء العجيبة أن هذا الجسم ينبهك إلى احتياجاته، إذا احتاج إلى الطعام أخبرك من خلال الألم أنه يحتاج إلى الطعام.. فإذا أكلت نبهك أيضًا إلى أنه قد انتهت حاجته، ولم يعد في حاجة إلى طعام آخر.. هذا الإحساس في حد ذاته مذهل، ولا يمكنك أن تعرف هذا الدهول إلا إذا تخيلت^(١) أنك فقدت هذا الشعور، ولم يعد جسديك ينبهك إلى احتياجه للطعام، أو وصوله إلى مرحلة الشبع، حينها لن ينتبه الإنسان إلى حاجته إلى الطعام إلا إذا نفذت طاقته، فإذا به يسقط أو يصيبه الضعف الشديد.. وقتها فقط سينتبه إلى حاجته إلى الطعام.

أو إذا فقد الشعور بالشبع، فظل يأكل ويأكل ويأكل دون تأثر حتى يستهلك بالطبع كمية ضخمة من الطعام، لعله سينتبه إذا وجد نفسه لا يستطيع التنفس؛ إذ تكون المعدة قد امتلأت عن آخرها فضغطت على الحجاب الحاجز الذي ضيق على الرئتين.. وهكذا.

إن الله - جلت قدرته - خلق فينا من الغرائز ما تحولت معه إلى أشياء طبيعية وعادية، وقد لا نتبه إليها من كثرة التعود عليها حتى لم يصبح الخيال يتخيل فقدتها، فلا نعرف قيمتها وأهميتها.. ولا نرى فيها يد الله المطلقة الإبداع والقدرة.. فسبحان الله!

(١) لعل هذه تكون فكرة مبتكرة تصلح لعمل أدبي رواني يلتقطها شاب موهوب.

- الجهاز التنفسي: وهو الوحدة المتخصصة في عملية من أهم العمليات المؤثرة على حياة الإنسان، حيث تنقسم إلى عناصر تستقبل الهواء الداخل عبر الأنف المزود بغشاءات داخلية مبطنة وشعيرات دقيقة تعمل على تنقية الهواء من الملوثات، ثم على ملاءمته لحرارة الجسم بالداخل، ثم يدخل الهواء نحو القصبة الهوائية عبر البلعوم أيضاً، والمزود بقطعة لحم صغيرة تعمل في آلية مبدعة مستمرة لغلق منفذ الجهاز الهضمي حين يدخل الهواء، كذلك غلق مدخل الجهاز التنفسي لحظة ابتلاع الطعام.

ثم يدخل الهواء فيما بعد إلى منطقة الرئتين اللتين تعملان على تنقية الهواء واستخلاص الأكسجين، ثم إعادة لفظ الهواء غير الصالح للجسم ليعود نحو الخارج عبر نفس الطريق.. وهذه العملية التي تتم في كل لحظة، والإنسان لا يدري بها.. بل إننى حين كتابة هذه السطور لم أكن أنتبه لها فعليا بشكل كامل.. وهى العملية الحيوية التي تتوقف عليها الحياة.

وهذا أيضاً هو الوصف العام البدائي - الظالم لعظمة الموصوف والمثير لسخرية المتخصصين - لهذه العملية التي تحتوى كل مراحلها على دقائق إبداع أخرى.

وعلى هذا النسق كل أجهزة الجسم كالجهاز العصبي الذي ينتشر كشبكة مواصلات ضخمة تصل إلى كل طرف مهما كان بعيدا ودقيقا، على رأسها المخ الذي يشبه غرفة العمليات على مدار الساعة والذي لا يتوقف لحظة عن تلقي الإشارات ويعت الأوامر إلى مناطق الجسم المختلفة..

والجهاز الدورى.. والجهاز التناسلى، وملايين العمليات التي تحدث داخل الجسم.. وحواس مثل السمع والبصر والصوت.. مملكة ضخمة تكسوها طبقة من الجلد، وهى في حد ذاتها آية أخرى.. وكل هذا في هذه المساحة الضئيلة التي يشغلها جسم الإنسان.

انتبه.. كنا فقط في القسم الجسدى.

أما القسم النفسى، وهو الذي ما يزال مجهولا بالنسبة للعلم إذا قارناه بالقسم الجسدى، مشاعر الحب والكره والخوف والرجاء والقناعة والطمع.. اختزان الصور

والأحاسيس والمشاعر.. تذكر المواقف والتواريخ والأحداث.. الارتياح لشخص أو لشيء من أول نظرة.. وبغض آخر دون سبب.. التقلب بين الحب والكراهة دون سبب.. مشاعر الاستمتاع.. مشاعر الرعب والفرع، لماذا يتصف البعض بالجرأة والآخر بالخوف وثالث بالشجاعة ورابع بالجبن؟؟

ومن أين تنبت هذه المشاعر؟ وكيف تنفجر في لحظة.. وقد تزول في لحظة أيضًا؟؟ كيف يكون الحدث الصغير البسيط ذو تأثيرات بعيدة على نفسية الإنسان وحياته حتى يبلغ أواخر عمره، ولا تفلح سنين من الخبرة والعمل والتجربة في أن تمحو هذه الحادثة بالذات أو هذا الشعور بالذات؟؟ من أين ينشأ الغضب الذي يرفع من معدل ضربات القلب، ومن تدفق الدم في الشرايين ويسبب ارتفاع درجة الحرارة في الجسم؟؟ ومن أين تنشأ السعادة والراحة والفرح.. لا أحد يدري.

لا أحد يدري.. رغم أنها أشياء من صميم النفس، ومن مكوناتها الأساسية.. وسبحان من جعل آياته في أعماق النفس.

هناك من تسكن الرحمة قلوبهم فيتحولون إلى بشر رقيق شفاف كأنه لمسة الهواء الناعم اللذيذ.. وهناك قساة غلاظ الأكباد كأنهم أحجار أو كأنهم الأفاعى والثعابين.. أو كأنهم وحوش وذئاب.

هناك الخدم المعطاء الذي يفيض على الناس حبا وعطفا.. وهناك الشحيح البخيل الذي لا يتردد في أن يتخلص من كل من يعوق رغباته أو يعطلها مهما كان سابق العهد والمودة.

هناك الحكيم الوقور، يقابله الأحمق المنذفع، هناك الحلیم يقابله الأهووج.. وكل هؤلاء ولد وعاش في ذات البيئة وذات الأجواء.

يكاد هذا يشبه كونا آخر تحت جلود البشر، متعدد الأنواع والتصنيفات والتفريعات والمستويات.. كون في أعماق البشر لا يطلع عليه ويراه إلا الذي خلقه سبحانه وتعالى جلّت حكمته وتقدّست أسماؤه.

ثمة تحدٍّ آخر في مجال النفس هذا.. وهو الروح..

هذا الشيء المجهول الذي تحدى الله الناس بمعرفته، ورغم أنه سر الحياة كلها، ورغم أنه الفارق الوحيد بين الحياة والموت.. بين الكائن الحي والجماد.. إلا أن الإنسان عاجز عن معرفته.

الشيء الذي لا يُرى ولا يُسمع ولا يُلمس ولا يشعر به أحد.. يكون الإنسان حيا متحركا، وأمام كل الناس تخرج منه الروح فيتحول إلى جسد ميت.. فلا يستطيع منهم أحد أن يعرف ما هذا الذي جرى؟

الروح.. طعم الحياة، وسر الأحياء.

إن تحدى الله للبشر بمعرفة هذا السر، ليكفي -وحده- لينقل القلب فيدخله إلى الإيمان، ولا أقول يدخل الإيمان إلى القلب؛ لأنه التحدي العميق في إعجازه، كيف لا يعرف الإنسان إلى الآن سر هذه الحياة التي يجيا بها، وكيف لم يستطع على طوال تاريخه وقد مات الملايين ثم الملايين، كيف لم يستطع لمرة واحدة أن يكتشف هذا السر؟ ثم كيف لم يستطع بعد أن تراكمت لديه المشاهدات والملاحظات والتائج أن يستخلص معادلة تحل هذا الإشكال وتفسر هذا السر العظيم.

غير أن التحدي ليس فيما سبق، بل في حكم الله بأنه الإنسان لن يعرف هذا السر أبدا، لن يعرفه مهما حاول، ومهما بلغ من العلم. هنا تتبدى عظمة التحدي، وهنا تتبدى عظمة الله.

ومع كل ميت يموت، ثم يقف الإنسان لا يستطيع تفسير «الروح» يعظم التحدي أكثر وأكثر، ويزيد المؤمن إيمانا، لأن الله قد قال: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥].

حين نرى تمثالا متقنا، أو رسما دقيقا.. يغمرنا الإعجاب بتلك اليد التي صاغت هذا الجمال، واقتربت به إلى الحقيقة.. وهو شعور طبيعي فطري خلقه الله في الإنسان.

لكننا في العادة ننسى شيئين في منتهى الأهمية:

١- أن كل هذه الصنعة هي بالأساس تقليد للجمال الطبيعي الذي أبدعه الله تعالى على غير مثال سابق.. وبين الإبداع والتقليد فارق ضخم لا يعرف حجمه إلا أهل الفن والتصميم.

٢- أن كل هذا الجمال والإتقان هو الغلاف الخارجى فقط.. هو الصورة السطحية.. الصورة الميتة التى تخلو من الروح، وهى بخلوها من الروح تخلو من كل الحياة.. من المشاعر والأحاسيس والانفعالات.. تخلو من التفاعل مع الكون، لا تميل مع النسيم ولا تهرب من الهلاك.. حجم صلد صامت.. أو سطح أملس، جميل نعم.. لكن هذا هو كل جماله، ولا يعطى غدا أى جديد أو إضافة.

وسبحان من تظل آياته تنطق كل يوم، بما يزيدا جمالا وجلالا وإبهارا.. وغموضا في ذات اللحظة.

٣) التفكير في القرآن الكريم:

أجدنى عاجزا عن الكلام في هذا الموضوع.. فالقرآن لغز.. شيء يشبه ذلك النعيم الذي لا يمكنك تحديد متعته على وجه التحديد، هو أصواج من إعجازات متعددة ومتنوعة..

متعة كتلك التى تجدها - مثلا وعلى سبيل التقريب - فى جلوسك فى جنة أرضية يحوطك فيها صفاء السماء، وهدير الماء المنهمر من شلال قريب، تحوم حولك العصفير والبلايل تسمع أنغامها وأصواتها الخلابة.. معك من الناس أكثر من تحبه وتستمتع به وتركن إليه، وذهنك قد تخلص تماما من أى همٍ يشغله، ثم يتحرك إلى جانبك حيوان لطيف، أو قد يداعبك حيونك الأليف.

هى متعة أحاول تقريبها، لكن يبدو أنى أعجز عن ذلك..

المقصد، هو أنها متعة لا تعرف من أين تأتى، هل هو المشهد الجميل أم الصوت الجميل أم ارتياحك الداخلى، أم من وجودك مع من تحب، أم.. أم.. أم...؟؟

هكذا القرآن، ولا أروع من القرآن.. أمواج متعة لا تنتهى، البلاغة القرآنية في التشبيه والتصوير ووصف المشاهد.. الإعجاز العلمى.. خطابه مع النفس البشرية.. عرضه لقصص السابقين واللاحقين..

إنها أشياء لا تعرف وأنت مغمور فيها من أين تأتيك المتعة..

ولا أدعى أنى عشت القرآن كما يجب، بل ولا كما أستطيع.. اللهم اغفر لنا تقصيرنا، لكن إذا طالعت أقوال من عاشوا مع القرآن تشعر بأنه قد تكونت بينهم وبين القرآن رابطة قوية ترفض الانتهاء أو الكسر، رابطة عنوانها «اللذة».. حتى إذا تأملنا بعضاً من المشاعر التى وصفها من عاشوا مع القرآن أدركنا أنهم قوم وصلوا إلى اليقين، بشدة ما تأثروا بالقرآن واستقبلوا منه خلال أسلوبه المتفرد آياته التى تغرس الإيمان.

يقول أحمد بن أبي الحواري: «إني لأقرأ القرآن فأنظر في آية آية فيحار عقلي، فأعجب من حفاظ القرآن كيف يبنهم النوم و يسعهم أن يشتغلوا بشيء من الدنيا وهم يتلون كلام الرحمن!! أما لو فهموا ما يتلون و عرفوا حقه و تلذذوا به واستحلوا المناجاة به لذهب عنهم النوم فرحاً بما رزقوا»^(١).

وكان مالك بن دينار يقرأ قوله تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١] ثم يقول: «أقسم لكم، لا يؤمن عبد بهذا القرآن إلا صدق قلبه»^(٢).

ويحكى الإمام ابن تيمية عن فترة سجنه التى لم يكن يستطيع فيها قراءة الكتب، فتفرغ للقرآن، يقول: «قد فتح الله عليّ في هذا الحصن في هذه المرة من معانى القرآن، ومن أصول العلم بأشياء كان الكثير من العلماء يتمنونها، وندمت على تضييع أوقاتي من غير معانى القرآن»^(٣).

(١) ابن الجوزي: صفة الصفوة، ٤/ ٢٣٧، ٢٣٨.

(٢) أبو نعيم الأصبهاني: حلية الأولياء ٢/ ٣٧٨.

(٣) ابن رجب الحنبلي: ذيل طبقات الحنابلة، ٤/ ٥١٩.

وفي عصرنا الحديث، ظهر لنا تفسير عجيب.. ينطق بأروع الإنبات بأن صاحبه قد عاش مع القرآن رحلة ملائكية.. ذلك هو تفسير (في ظلال القرآن) للشهيد سيد قطب، الذي كان حتى اختياره لاسم التفسير جديدًا على الوجدان الإسلامي.. وقد كتب أغلب التفسير أثناء سجنه في أيام الاضطهاد الذي مارسه عبد الناصر على الإخوان المسلمين. ولقد أوتى الشهيد موهبة بلاغية جعلته يجيد في وصف المشاعر التي انتابته لدى قراءته للقرآن، وكتب في هذا الكثير والكثير مما لو تم تجميعه لصار كتابا كبيرا منفردا.. المهم أن الرجل ذكر باختصار قصته في ظلال القرآن في مقدمة التفسير، فقال:

«الحياة في ظلال القرآن نعمة، نعمة لا يعرفها إلا من ذاقها، نعمة ترفع العمر وتباركه وتزكيه.. والحمد لله.. لقد منَّ علي بالحياة في ظلال القرآن فترة من الزمان، ذقت فيها من نعمته ما لم أذق قط في حياتي. ذقت فيها هذه النعمة التي ترفع العمر وتباركه وتزكيه»^(١).. ومقدمة الظلال من أروع ما كُتِب في التأثير بالقرآن.

يقول ابن القيم عن القرآن: «أسمعَ والله لو صادف آذانا واعية، وبصَّر لو صادف قلبوا من الفساد خالية، لكن عصفت على القلوب هذه الأهواء فأطفأت مصابيحها، وتمكنت منها آراء الرجال فأغلقت أبوابها وأضاعت مفاتيحها، وران عليها كسبها، فلم تجد حقائق القرآن إليها منفذا، وتحكمت فيها أسقام الجهل فلم تنتفع معها بصالح العمل»^(٢).

ولكى لا يطول منا الكلام.. والقرآن لا تفنى عجائبه، نقصر على مثالين فقط، وليكونا في الإعجاز العلمي؛ لأنه الإعجاز الذي يتحدى به القرآن أهل هذا العصر.

١- كتب الدكتور منصور حسب النبي - رحمه الله - الأستاذ بجامعة المنصورة بحثا أثبت فيه - من خلال القرآن - صحة نظرية أينشتاين التي تقول بأن سرعة الضوء هي ثابت كوني، من خلال وصوله إلى أن سرعة عروج الأمر الكوني المستنتجة من القرآن تساوي سرعة الضوء تمامًا.

(١) سيد قطب: في ظلال القرآن ١/ ١١.

(٢) ابن القيم: مدارج السالكين ١/ ٣.

يقول^(١):

للحساب القرآني للسنين يقدر بالسنة القمرية وليست الشمسية؛ لقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِّ وَالْحِسَابِ﴾ [يونس: ٥]. ولذا فالزمن الذي يستعمله القرآن هي السنة القمرية. وانطلاقاً من قوله تعالى: ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ [السجدة: ٥] نستنتج أن الملائكة يصعدون بالأمر من الأرض إلى السماء في يوم واحد يساوي بالزمن الأرضي ألف سنة قمرية، أي ١٢ ألف شهر قمرى. (أى أن هذه هي سرعة الملائكة في العروج بالأمر).

لذا فإذا حسبنا المسافة التى يقطعها القمر في ١٢ ألف شهر قمرى، ثم حولنا حساباتنا إلى النظام الشمسى؛ لكى يتوافق مع المقياس العلمى المتعارف عليه. ومن خلال المسافة المقطوعة ومن خلال معرفة الزمن (اليوم الأرضى) يمكننا حساب سرعة الملائكة في العروج بالأمر الكونى.

لقد انتهى البحث بالحساب إلى أن هذه السرعة تساوى تماماً (مع فرق طفيف وضميل جداً جداً ناتج عن خطأ طبيعى في العمليات الحسابية والتقريبات النسبية) سرعة الضوء^(٢).

٢- المثال الثانى ذكره العالم العالمى الجليل د. زغلول النجار حين تحدث عن الإعجاز العلمى في القرآن الكريم بإحدى جامعات استراليا عن أن القرآن ذكر منذ ألف سنة أن المعادن نزلت إلى الأرض من خارجها وليست شيئاً أصيلاً فيها، والدليل على هذا أن الحديد الموجود في باطن الأرض يحتاج في تكوينه إلى طاقة حرارية عالية تساوى أربع مرات الطاقة الحرارية الموجودة في مجموعتنا الشمسية.

(١) نقلها بتصرف واختصار وتوضيح لا يخل بالمعنى.
(٢) سنضع العمليات الحسابية بالتفصيل في ملحوظة بنهاية هذا الكتاب. (ملحوظة): هذا الاستنتاج يكتب خطأ في بعض مواقع ومنتديات الإنترنت تحت عنوان (اكتشاف سرعة الضوء من القرآن الكريم).

ولفتت إحدى الحاضرات نظره إلى رقم السورة ورقم الآية التي وردت فيها كلمة (الحديد).. فذهل الدكتور زغلول حين وجد أن رقم السورة يطابق العدد الكتلي لعنصر الحديد، ورقم الآية يطابق العدد الذري. (٥٦، ٢٦)^(١)، ولا أظن عاقلاً - غير معاند - يمكن أن يرى هذا الإعجاز العلمي بالقرآن الكريم ولا يؤمن به ولا بخالقه.

وسبحان الله العليّ العظيم.

٤) التفكير في التاريخ:

التاريخ هو التجربة السابقة التي تكشف لنا الآن القوانين التي تحكم هذا الكون، وتتحكم فيه.. فإذا عرفنا مثلاً أن كل الحضارات والقوميات التي لم تكن تقيم العدل كلها بلا استثناء تزول تدريجياً بمجرد تخليها عن العدل.. كان من العبث أن نفكر في حياة مستقرة مستقيمة دون هذه القيمة (العدل).

وإذا قص علينا التاريخ قصة الحق الأعزل الضعيف الذي دائماً ما ينتصر ضد قوة باطلة كبيرة ومهيمنة.. كان من العبث أن يختار الواحد فينا معركته ورسالته في الحياة إلى جوار الباطل المتكبر.

هكذا سائر العبر التي يمكننا استخلاصها من التاريخ، لأن التاريخ تجارب الناس..

ولعل أهم عبرة يمدنا بها التاريخ هو قانون الموت والفناء، مهما بلغ الإنسان والحضارات من عظمة وهيمنة.

حينما أذهب إلى المعابد أو المتاحف أو القلاع مثلاً.. أو حتى تلك المباني المتناثرة والتي لم يمض على بنائها أكثر من مائة أو مائتي عام، أكاد أتحمس الأحجار التي قد مات بانيها وساكنها والأمر بينائها.. وقد ماتوا هم وأبناؤهم وأحفادهم، والله أعلم أين أبناء

(١) هنا وقفة: ترقيم السور هو من الأشياء التي فيها خلاف بين العلماء، ومصدر الخلاف هل يبدأ العد من أول الفاتحة أم من أول البقرة.. فإذا بدأ العد من أول الفاتحة كان رقم سورة الحديد ٥٧، وإذا بدأ من البقرة كان رقم السورة ٥٦، كذلك هناك اختلاف بين العلماء حول هل البسملة آية من آيات كل سورة أم أنها آية من الفاتحة فقط؟، فإذا اعتبرناها آية من كل سورة يكون رقم آية سورة الحديد ٢٦، وإذا لم تُحسب البسملة يصبح رقم الآية ٢٥.

أحفادهم وأحفاد أحفادهم الآن.

كلهم قد مات، وبقيت آثارهم التي بنوها.. بقيت تدل عليهم، وتذكر الناس بهم.. تقول في صمت: إن أناسا عاشوا هنا وبنوا، ثم ماتوا وراحوا.

إنه صمت بليغ، يذكرك بأنك بعد مائة عام على الأكثر ستكون قد مت ورحلت عن هذه الأرض تمامًا، فانظر ماذا قدمت لهذا المصير.

ولعل أكثر ما يركز عليه القرآن الكريم هو مصير المكذبين لآيات الله والكافرين به، وكيف أهلكهم الله تعالى، إما بعقاب عام أو بعقاب خاص، ولقد كثر في الأمم السابقة الهلاك العام الذي عاقبهم به الله كالريح والصواعق والإغراق، والخسف وغير ذلك ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَّنْ حَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَّنْ أَعْرَفْنَا وَمَا كَانِ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٠]. ولربما كثير منا اليوم يستبعد هذا العقاب الجماعي، رغم أنه لا يخلو من حياتنا بين كل فترة، وسبحان الله منذ أيام وبعد بدايتي في هذا الكتاب حدث - في فبراير ٢٠٠٦م - انزلاق طيني من أثر بركان قديم فطمس قرية فلبينية بكاملها، بكل ما فيها من مباني ورجال وأطفال ونساء.. لحظات وكانت القرية قد اختفت تحت الطين.

وفي ديسمبر ٢٠٠٤ كانت الزلزال الذي حدث في المحيط قبالة إندونيسيا والذي نشأت عنه أمواج هائلة تعرف علميا بـ (تسونامي)، هذه الأمواج أخفت بلدانا كاملة، وأغرقت في حصيدلة غير نهائية أكثر من ٢٠٠ مليون إنسان بين غريق ومفقود.

أضف إلى هذا الزلازل التي بدأت ترحف نحو مناطق لم تكن تصاب بها من قبل مثل مصر وتركيا وإيران..

كل هذا يعني أن العقاب الإلهي قائم، ومن الممكن أن يعم الناس في لحظة ليس أكثر. في حلقة تليفزيونية أذاعتها في ٢٠٠٣ قناة (طريق النجاح smart way) بعنوان (حقيقة الحياة الدنيا) كانت تهدف إلى أن تقول: «الموت يأتي في أي لحظة».. سواء بالشيخوخة أو الحوادث أو المرض المفاجئ أو الحوادث العامة.. في أحد المشاهد بدا منظر

الماء وكأنه يفترس أحد المباني ليغرقه.. وقفز إلى ذهني سؤال: ترى كيف لو أن واحدا داخل هذا المبنى على معصية الآن، فيموت على المعصية؟

وكان احتمالا مفرعا ومرعبا؛ لأن أي معصية يمكن أن تكون هي لحظة الموت لأي سبب، وما أبشعها من نهاية، وما أسوأها من خاتمة.

وإذا كان التاريخ يمدنا بهذه التجارب التي تؤكد أن الابتعاد عن الله وترك آياته أو محاربتها ومعاداتها إنما مصيره عذاب في الدنيا قبل ذلك العذاب الخالد في الآخرة.. أليس من العبث أن يستمر هذا الابتعاد عن منهج الله؟

بل لعل هذا من الجنون والحماقة.. ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِن نَّشَأْ نُخَسِّفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنِّي فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنبِتٍ﴾ [سبا: ٩].

ومهما بلغ القوم من العلم والقوة والمال لم يشذ عنهم قانون الله الراسخ ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَأَثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [غافر: ٨٢]. ما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون..

وقد كان القرآن ينزل يقص على النبي ﷺ قصص الأقوام السابقين تثبيتا له وتسريا عنه لما يلقاه من تكذيب قومه، وتبقى هذه الآيات خالدة لكل الناس.. ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١].

وحتى مطالعة التاريخ، دون رؤية آثار السابقين بالعيون أمر ذو أثر بليغ؛ فالقراءة عن الحياة التي تمت منذ قرون، وكيف عاش فيها البشر يأكلون ويشربون ويتزوجون، ثم هم أيضا يتنافسون ويتحاسدون ويتحاربون، إنها صورة البشر الذين كانوا ثم ماتوا وانتهوا ولا يعرف أحد أين أحفادهم الآن، ولا أين ذهبت أموالهم وكنوزهم وحيولهم ودوابهم.

صورة من الحياة حفظتها لنا الكتب، لكن كأنها صورة المرأة، إذ نرى فيها أنفسنا

وحياتنا، معيشتنا ومماتنا، صورة الصراع والتنافس والتباغض والتحاسد، إنها صورتنا نحن قبل أن نولد، ونحن أيضًا صورة لأحفادنا قبل أن يولدوا.

وكما حفظت الكتب حياة من قبلنا لنا، فستحفظ أيضًا حياتنا لمن بعدنا. ترى إذا أمسك حفيد لنا بكتاب التاريخ وقرأ فيه حياتنا اليوم، أين سنكون في هذا الوقت؟.. أين؟ إنه سؤال مفزع، وقد يكون صادما، برغم أنه سؤال بسيط ومنطقي للغاية.

كاتب هذه السطور سيكون في القبر، وأنت كذلك أيها القارئ، سنكون قد تركنا هذه الدنيا ورحلنا عنها، ولا شك أننا سننسى، أو قد تدل علينا أعمالنا وآثارنا، لكن أين سنكون؟ في روضة الجنة أم في حفرة النار؟ إنه ليس ثمة مصير آخر. حين يقرأ حفيدنا الكتاب لن يعرف أين نحن في هذا الوقت، لكننا نحن سنعرف، بل سنعيش الحياة الحقيقية الكاملة مثلما أننا لا نعرف مصير من سبق، ونقرأ عن حياتهم في الكتب، ولكنهم يعيشون حياتهم ويعرفونها، هذا هو درس التاريخ البالغ، ورغم بلاغته فإن الذين يتبهنون له قليل. حتى ليكاد يصدق قول القائل: «إن التاريخ نفسه يعلمنا أن العظة والعبرة الوحيدة في التاريخ، هي أن أحدًا لا يتعظ من قراءة التاريخ»^(١).

قارئ التاريخ لا تمر عليه أسطر إلا ويقرأ تاريخ وفاة لأحد الناس، وفاة أو قتل، في حرب أو على الفراش، في الجهاد أو في عقوبة، تعددت الأسباب والموت واحد، لكن الحقيقة الأكبر من التفاصيل أن الكل قد مات، لقد مات أبو حنيفة، ومات مالك، ومات الشافعي، ومات أحمد. مات الخلفاء العظام ومات الخلفاء الضعفاء، مات الجبابرة ومات الأتقياء. مات مروان بن الحكم، وعبد الملك بن مروان، والوليد بن عبد الملك، مات أبو جعفر المنصور ومات الرشيد والأمين والمأمون والمعتصم، مات عبد الرحمن الداخل وعبد الرحمن الناصر والمنصور بن أبي عامر، مات عماد الدين زنكي، وابنه الملك العادل نور الدين، ومات صلاح الدين، مات قطز ويبرس وقلاوون، مات عثمان وأورخان ومراد ومحمد الفاتح، مات الغزالي وابن الجوزي وابن تيمية وابن القيم، ماتوا وما بقي منهم أحد.

(١) د. قاسم عبده قاسم: إعادة قراءة التاريخ، ص ١٩.

مات قبلهم الجليل الفريد، وخير الناس، مات الجليل الكريم، جيل أبي بكر وعمر
وعثمان وعلي.. وبلال وسلمان وخالد بن الوليد.. مات جيل الزهاد والعباد والفتاحين
الكبار، وذهب عصر العاقلة الأفذاذ، نجوم الدنيا، وفخر البشرية..

مات الحبيب..

سيد الخلق وأكرم الناس، وخير من مشى على ظهر الأرض، وخير من نزل إليه خبر
السماء، مات الذي أخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم، مات رسول الله محمد
ﷺ وصدق قول الله فيه: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِنَشْرِ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ﴾

[الأنبياء: ٣٤].

مات الأنبياء والمرسلون، والصالحون والطالحون، ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ
وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥].

لكن عبرة التاريخ ليست في الموت فقط، بل هي عبرة في الحياة أيضًا..

إن الناس لا يزالون يتذكرون أئمة العلم والفقهاء والدين، لا يزال فقه أبي حنيفة
ومالك والشافعي وأحمد تقرأه الدنيا، ما تزال عبقریات ابن حزم والغزالي وابن تيمية
تسحر العقول، ما يزال طب ابن سينا والزهرراوي وابن النفيس وابن زهر يعيدهم إلى
الحياة، يعرف الناس الجزري والحسن بن الهيثم وجابر بن حيان والقزويني وابن فضلان
وابن جبیر وابن بطوطة والإدریسی، وطابور طویل يتزاحم في الرأس ولا تستوعبه سرعة
القلم.

العلم يرفع بيتا لا عماد له والجهل يهدم بيت العز والنسب

لقد خلدوا بعلمهم واجتهادهم، وتذاكرتهم القرون والأجيال، وطبعت مؤلفاتهم
حتى بعد وفاتهم بألف سنة، ولا أحد يمل من علومهم، ثم لا أحد يمل من الإعجاب

٠٣٣

لكن من العسير، إن لم نقل المستحيل، أن نتذكر في عصورهم كبار «رجال الأعمال»
أو كبار التجار، بل حتى الولاة «المحافظون» وأصحاب الشرطة «وزراء الداخلية»

والسفراء «وزراء الخارجية»، بل من العسير عند غير المتخصصين في التاريخ أن يتذكروا أسماء الخلفاء الذين كانوا في عصورهم.

ولم يخلد رجل أعمال، أو صاحب منصب في التاريخ إلا لو كان له أثر في عمل الخير، فذهب الرجل وذهبت أعماله، ولم يبق له ما يذكر باسمه إلا المسجد الذي بناه أو السبيل الذي حفره أو المدرسة التي أنشأها لتعليم الصبيان.
وفي هذا عبرة.. عبرة تشرح لك طريق الخلود.

٥) التفكير في أسماء الله وصفاته جل وعلا:

يقول الإمام ابن القيم: «من أعجب الأشياء أن تعرفه ثم لا تحبه، وأن تسمع داعيه ثم تتأخر عن الإجابة، وأن تعرف قدر الربح في معاملته ثم تعامل غيره، وأن تعرف قدر غضبه ثم تتعرض له، وأن تذوق ألم الوحشة في معصيته ثم لا تطلب الأُنس بطاعته، وأن تذوق عصرة القلب عند الخوض في غير حديثه والحديث عنه ثم لا تشتاق إلى انشراح الصدر بذكره ومناجاته، وأن تذوق العذاب عند تعلق القلب بغيره ولا تهرب منه بنعيم الإقبال عليه والإنابة إليه. وأعجب من هذا علمك أنك لا بد لك منه وأنتك أحوج شيء إليه وأنت عنه معرض، وفيها يبعدك عنه راغب»^(١).

يكاد يكون السبب في ضعف الإيمان وقلة اليقين والجرأة على المعاصي، هو عدم معرفة (الله).. أو - بمعنى أدق - هو عدم معرفة (قَدْر الله)، فلا يمكن أن تجتمع معرفة قدر الله تبارك وتعالى ثم يكون العبد مقبياً أو مُصِراً على المعاصي، وفي هذا يقول الحسن البصري: لا تنظر إلى صغر المعصية، ولكن انظر إلى عظمة من عصيت».

ولن نجد تقريباً بديعاً لهذه الصورة مثل حديث رسول الله ﷺ، قال: «أوصيك أن تستحي من الله كما تستحي من الرجل الصالح من قومك»^(٢).

فترك المعصية في هذه الحالة تعظيم لقدر الله تبارك وتعالى واستحياء منه.

(١) ابن القيم: الفوائد، ص ٤٧.

(٢) رواه الطبراني في المعجم الكبير (٥٥٤٨) والبيهقي (٧٧٣٨) وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير (٤٣٠٦).

وكان سيدنا نوح حين يستنكر المعصية على قومه يذكرهم بمقام الله فيقول: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ [نوح: ١٣].

ولقد عرفنا الله به من خلال أسمائه الحسنى وهى تسع وتسعون كما في الحديث، منها الرحمن والعليم والقدير والعظيم والغفور والصبور والشكور والحي والقيوم والجبار والعزيز والمهيمن والخالق والرازق والمحى والمميت.. فعن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لله تسعا وتسعين اسما مائة إلا واحدا، من أحصاها دخل الجنة وهو وتر يحب الوتر»^(١)، تسع وتسعون اسما، كل منها يلقي إلى القلب معنى جليلا.. يُدْرِكُ من كل اسم جانب من جوانب الكمال والعظمة التى يتصف بها الإله الواحد العظيم.

يقول الإمام القرطبي: «سمى الله سبحانه أسماءه بالحسنى لأنها حسنة في الأسماع والقلوب؛ فإنها تدل على توحيده وكرمه وجوده ورحمته وإفضاله»^(٢). ومن خلال الأسماء الحسنى، تستقر في النفوس معانيها التى تحبب الله تبارك وتعالى، إن كل اسم من أسماء الله تعالى ترسل إلى النفس ذلك المعنى القوى العميق المدهش، فإذا استقبلته النفس عرفت قدر الله تبارك وتعالى.

فإذا حاولنا مثلا تأمل سعة علم الله وإحاطته بكل دقائق البشر ما صغر منها وما كبر، سنجد أن النفس تنزعج وتتبه في رهبة وفزع إلى أن كل دقائقها وخفاياها وأسرارها هى أمر مكشوف عند الله، بل حتى تلك الأسرار التى لم تخرج إلى العلن..

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلْنَاهُ مَأْتُوْسُوْسٍ بِهٖ نَفْسُهُ﴾ [ق: ١٦]. ﴿إِنَّهٗ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى﴾ [الأعلى: ٧]. بل ويعلم ما هو أخفى من السر ﴿يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه: ٧]. ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظِلْمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩]. ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ [الحديد: ٤]، وما أروع وصف الشاعر الذى تأمل في علم الله فأنشد يقول:

(١) متفق عليه: البخارى (٦٠٤٧)، ومسلم (٢٦٧٧).

(٢) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن ٧ / ٣٢٦.

يا من يرى مدّ البعوض جناحها
ويرى مناظ عروقها في نحرها
ويرى خريز الدم في أوداجها^(٣)
ويرى وصول غذا الجنين لبطنها
ويرى مكان الوطاء من أقدامها
في ظلمة الليل البهيم الأليل
والمخ^(١) من تلك العظام النَّخْل^(٢)
مُتَنَقِّلاً من مفصل في مفصل
في ظلمة الأحشاء عبر تنقل
في سَيْرِها وحيثها^(٤) المستعجل

وليس من شك إذا استشعرت النفس هذا العلم الشامل أنه تبدأ في مرحلة أخرى من مراحل إحساسها بالله العليم القدير.. ولا شك أنه إحساس يعيد إليها حاسة تقييم الحقيقة، لتعرف أن أفعالها كلها عند الله تبارك وتعالى.

ومثل هذا في قدرة الله، فهذه القدرة الباهرة المطلقة التي يخضع لها كل شيء، ويزول أمامها كل قانون، ولا تحتاج إلى أكثر من كلمة (كن) لتكون كما أراد الله تبارك وتعالى. لا يشذ عن هذا نجم ضخم عملاق، ولا ذرة ضئيلة، ولا خلية تبدأ في التكون.. الكل لا شيء أمام قانون الله وإرادة الله وقوة الله تبارك وتعالى.

استشعار هذه القوة المطلقة التي تسيطر على كل هذا الكون اللامحدود.. تدخل النفس في مرحلة أخرى من مراحل إحساسها بالله القادر القاهر الجبار المهيمن. مثل هذا رحمة الله ووجه لعبده، وفرحه بتوبته عودته إليه أكثر من فرح الوحيد الذي ينس من الحياة وأشرف على الهلاك، ثم أتته الحياة مرة أخرى.

قال ﷺ: «الله أفرح بتوبة عبده من أحدكم سقط على بعيره وقد أضله في أرض فلاة»^(٥). وفي رواية لمسلم «الله أشد فرحاً بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة فانقلت منته وعليها طعامه وشرابه، فأيس منها، فأتى شجرة فاضطجع

(١) المخ: أصل العظام.

(٢) النَّخْل: جمع النخيلة.

(٣) أوداج: العروق، ويقال تحديداً للعُرْقَيْن الذين في العنق.

(٤) حيث: سريع.

(٥) متفق عليه: البخاري (٥٩٥٠)، مسلم (٢٧٤٧).

في ظلها قد أيس من راحلته، فبينما هو كذلك إذ هو بها قائمة عنده، فأخذ بخطامها ثم قال من شدة الفرح: اللهم أنت عبدي وأنا ربك، أخطأ من شدة الفرح».

فسبحان الله الذي اتصف بصفات الجمال والكمال والجلال، وتقرب إلى عباده بتعريفهم أسمائه وصفاته، فإذا تقرب العبد إليه شبرا تقرب الله إليه ذراعا، وإن تقرب العبد ذراعا تقرب الله إليه باعا، وإن أتاه يمشى أتاه الله هرولة كما في الحديث القدسي الصحيح^(١).. مع استغناء الله تعالى عن كل عباده، وافتقار كل العباد إلى الله.. إلا أن الله تبارك وتعالى ليس كأي سيد.. ففي كل عبودية ينتفع السيد من عبده، إلا في عبودية الله التي ينتفع فيها العبد بخير سيده الأعلى تبارك وتعالى كما يقول الشيخ الشعراوي رحمه الله. فإذا عرف العبد هذه الصفات في إلهه ومعبوده كان ذلك العجب الذي يصفه الإمام ابن القيم في كلامه السالف الذكر: «من أعجب الأشياء أن تعرفه ثم لا تحبه، وأن تسمع داعيه ثم تتأخر عن الإجابة، وأن تعرف قدر الريح في معاملته ثم تعامل غيره، وأن تعرف قدر غضبه ثم تعرض له، وأن تذوق ألم الوحشة في معصيته ثم لا تطلب الأناجى بطاعته، وأن تذوق عصرة القلب عند الخوض في غير حديثه والحديث عنه ثم لا تشاق إلى انشراح الصدر بذكره ومناجاته، وأن تذوق العذاب عند تعلق القلب بغيره ولا تهرب منه بنعيم الإقبال عليه والإجابة إليه. وأعجب من هذا علمك أنك لا بد لك منه وأنت أحوج شيء إليه وأنت عنه معرض، وفيما يبعدك عنه راغب».

٦) التفكير في نعم الله

يستطيع مرض واحد أن يقلب الحياة كلها إلى جحيم دائم..

ذلك المرض يسببه فيروس متناهي الصغر لا يشعر به المريض إلا بعد أن يستوطن جسمه ويحدث فيه الكوارث.. في تلك اللحظة فقط، يدرك الإنسان معنى نعمة الصحة.

قد يُنسى الاعتياد على النعمة مدى أهميتها وتأثيرها.. ولا يعرف نعمة البصر إلا من يحرم من البصر، فلا يفقد فقط سهولة الرؤية، بل يفقد معنى ضحكا اسمه «الأمان»، وكأنه

(١) متفق عليه: البخاري (٦٩٧٠)، ومسلم (٢٦٧٥).

يتحرك في أمواج من الظلمات لا يدري من أين تأتيه السهام.

سبحان الله العلي العظيم..

كم من الشباب الذين يعبرون الشارع في رشاقة وسهولة، ودون أن يفكر لهذا العبور أو يحسب له حسابا.. كم منهم يقدر تلك النعمة التي قد يكون حرمها سائر بجواره لا يستطيع العبور إلا بمشقة بالغة.

بل لنترك النعم الكبيرة مثل السمع والبصر، لنجد أن الظفر إذا انتزع أو جرح أو وقع عليه حجر مثلا.. كيف يتحول ألم الظفر كأن اليد كلها قد شُلت، بل إن الجرح -مهما كان بسيطاً وسطحياً ولا يتعدى الجلد- يؤثر في حياة الإنسان ويكاد يستحوذ على كل تفكيره وكأنه كل الجسم، أو كأن الجسم قد تركز في هذه المنطقة.

هذا ونحن مازلنا عند سطح الجسم الإنساني، فإذا دخلنا في أعماقه التي تمتلئ بالتعقيدات والتركيبات، وجدنا الخلل البسيط في إفراز غدة واحدة قد يعطل عملية كاملة.

ومهما قلنا وشرحنا ووصفنا.. لن نعرف قيمة الشيء إلا إذا فقدناه.

لن نعرف قيمة الصحة إلا إذا أصابنا المرض.

لن نعرف قيمة المال إلا إذا فقدنا المال.

لن نعرف قيمة الأم والأب والصديق والزوج والزوجة إلا بعد الفقد.

بل لن نعرف قيمة الفراغ إلا إذا تكاثرت المسؤوليات.

ولن نعرف قيمة راحة البال إلا إذا تابعت الهموم.

لن نعرف قيمة النعمة في الطعام إلا إذا حَرَمْنَا الطيب من أكله.

لن نعرف قيمة الثياب إلا إذا عجزنا عن شرائها.

وكل هذه أمور اعتدنا عليها، وقليل من يشكر الله على أن أنعم عليه بها، ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ

وهناك من النعم ما ليس بظاهر وواضح هكذا، بل يحتاج إلى بعض التأمل لاستخراجه.. فمثلا: ذلك الطفل الصغير^(١) الذي لا يقدر على فعل شيء، ولا يعرف أى شيء، ولا يستطيع دفع الضرر عن نفسه.. انظر كيف يمكن لأي إنسان أن يقتله بأبسط وسيلة ودون صوت.

لكن الله ألقى في قلوب الناس الرحمة بالأطفال والحب لهم.. فكان هذا هو السلاح الذي يتسلح به الطفل الصغير، فتجده يبكى ويصرخ ويلعب ويلهو وقد يتسبب بلهوه وعبثه في أضرار لنفسه ولأهله.. كل هذا ولا يجروا إنسان أن يعاقبه.. هذا إذا لم يكن هذا اللهو والعبث من مصادر السعادة بالنسبة لمن حوله.

انظر كيف ألقى الله الرحمة له في قلوب الناس، فأحاطته هذه الرحمة حتى كبر وشب وقوى واستطاع الاعتماد على نفسه.. ولو لا هذه الرحمة لهلك من أول حياته.. وهى نعمة لا يدعى بشر أن أحدا غير الله هو الذي أنعمها.

بل هى نعمة تحمل من الجمال واللفظ والإبداع ما تجعلك تصرخ في انبهار: سبحان الله.

لو كان جسد الأم مثلا لا يحتوى على تلك المنطقة التى تتحمل أن يرضع منها الصغير في كل يوم مرات ومرات.. لأصبح كل رضاع عذابا لا بد للأُم أن تتحملة لكى ترضع وليدها... كيف يكون حالها؟

وكم من الأمهات يشكرن الله على مثل هذا؟؟

بل دعونا نلتقط هذا الخيال.. لو أن الله لم يُعَلِّم للناس الأسماء.. أسماء الأشياء، كيف كان يمكن للناس أن يتعاملوا.. إذا أراد رجل أن يحدث آخرًا عن الجبال مثلا، إما أن يذهب بِمُحَدِّثِهِ إلى الجبل أو يأتى بالجبل إلى محدثه.

بل إذا أراد أن يحدثه عن معنى غير محسوس، كالعدالة والحرية والشجاعة والأخلاق.. ماذا كان سيفعل؟؟؟

(١) هذه الفكرة لأخي الحبيب: سراج بكير، وهى خاطرة له أسرَّ لي بها في جلسة تأمل.

كم واحدا يا ترى فُكر أن يشكر الله على مثل هذه النعمة؟؟

إذا تحولت كل الدنيا إلى أعداء، وحاولت أن تجد فيها أحداً يوجبك فلم تجد.. كيف تصبح الدنيا حينها؟؟ فإذا تخيلت ورأيتها تصبح جحيماً، فكم مرة فكرت في شكر الله أن جعل لك من تطمئن إليه وتأمين له ومن تفضى إليه بهومك؟

كل من أسدى إليك معروفاً وقدم إليك خدمة وأعانك في كرب إنها هو نعمة، نعمة يُشكر عليها الله وحده «فمن أنعم عليه ملك الملوك بشيء ثم رأى لوزير الملك أو لحاشيته مدخلا في هذا فهو إشراك بالملك في النعمة، إذ لم ير النعمة منه من كل وجه، بل رآها منه ومن غيره، فيتوزع فرحه عليها فلا يكون مُوحّداً في حق الملك... من الذي سخرهم لك، وألقى في قلبهم الرغبة ويسر الأسباب عليهم حتى أوصلوا النفع لك... ولو اعتقدتهم فاعلين شيئاً فهلاً اعتقدت القلم والحبر والورق الذي كتب عليه كلامك فاعلا؟ ولم لا اعتقدت أن الخازن الذي يخرج لك الدراهم^(١) فاعلا؟ فإن كنت تعتقد أن كل واحد من هؤلاء مقهور من الملك مجبور، ولو ترك لنفسه ورأيه لما أعطاك ذرة، فافهم أن كل من وصل لك على يديه خير من المخلوقين، فهو كذلك في قبضة رب العالمين، فاشكره وحده ولا تشرك به أحداً»^(٢).

ألا ترى أن نعمة الله فعلا.. لا تعد ولا تحصى؟؟؟

وفي كل نعمة نعم أخرى.. وسبحان الله

﴿رَبِّ أَوْزَعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ [النمل: ١٩].

هل استشعرت؟

هل استشعرت الآن بعضاً من هذا اليقين؟؟

هل..؟

أم.....؟؟

(١) أي «موظف الخزانة» الذي يعطيك بأمر من الرئيس أو المدير صاحب السلطة، ولو لم يكن أمر من صاحب المال ما أعطاك أبداً.

(٢) السبكي: معيد النعم ومبيد النقم، ص ٤، ٥. باختصار وتصرف

لا أقصد استشعار هذا اليقين بعد قراءتك ما سبق، إنما سيكون بعد أن تتأمل من خلال عينيك وأذنيك وقلبك وروحك وعقلك في آيات الله التي تراها في كل شيء حولك.. انظر إلى ابنك.. بل إلى نفسك. كيف تحوّلت من قطرة من المنى إلى ذلك الكائن الحى الذي يفيض بالحركة والتفاعل والتأثير في الأشياء والأشخاص من حوله، كائن يفيض كذلك بإحساسات ومشاعر، له رغبات وطموحات وآمال وأحلام.. يسمع ويبصر ويتكلم.. كل هذا من قطرة منى، بل هو من حيوان منوي واحد كان ضمن ملايين الحيوانات المنوية السابحة معه داخل قطرة المنى الواحدة.

وكل هذا حدث دون أى تدخل من أى شيء أو قوة إلا قوة الله التي أودعها في القوانين التي تعمل في الكون الفسيح من أول الذرة وحتى المجرة، وما أصغر من ذلك وما أكبر.

لا تكن أعمى..

﴿وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٢].

إن التأمل في خلق الله تبارك وتعالى وفي نعمه وفي أسائه وصفاته، يجعل اليقين يسرى في العروق كما تسرى الدماء، ففي كل شيء الله آية تشهد له وتقر بعظمته وبوحدانيته تبارك وتعالى، والمرء ما دام ذا قلب متأمل وعقل يقظ، فلن يجد شيئاً في حياته لا يخبره ويذكره بالله.. وعند هذا تستقيم حاله، فإذا أذنب ذنباً أو أتى ما لا يليق به، سارعت آيات الله إلى تذكيره فيعود.. ﴿إِنَّ الدِّينَ اتَّقُوا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١].

- فالكون خير شاهد على حسن الصنعة ﴿مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَؤُوتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير ﴿[الملك: ٣-٤].

والنفس تستدعى النظر والتأمل ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١].

وذلك القرآن.. تجد خالد ﴿قُلْ لِّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨].

والتاريخ عبء خالدة، من لم ير فهو لا يسمع ولا يبصر ولا يعقل ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

- ثم الأسماء الحسنی.. لا يلحد فيها إلا من وصفهم الله بأنهم أنعام.. بل أضل ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ والله الأسماء الحسنی فادعوه بها وذرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿[الأعراف: ١٧٩ - ١٨٠].

- ثم نعم الله.. نهر يعجز البشر عن عد قطراته ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَعَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ١٨].

آيات تملأ السمع والبصر.. لا تنتهى ولا تنفذ.

﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بَعَثَكُمْ إِلَّا كُنُفُسٍ وَاحِدَةً إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِّن آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَّوْجٌ كَالظُّلْمِ دَعَا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَارٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنزِلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿[لقمان: ٢٧ - ٣٤].



الباب الرابع تأملات

هذه مجموعة خواطر أو تأملات سنحت لي في أوقات مختلفة، ولم تكتب لتوضع في هذا الكتاب، ولكن شاء لها الله هذا.

- كـ أمومة وأبوة.. والوهية.
- كـ مشاهد بسيطة.. عميقة.. محيرة.
- كـ سيطرة عجيبية.
- كـ الماء.
- كـ بغثة
- كـ جعلناهم أحاديث
- كـ قراءة جديدة لسورة الحديد



أمومة وأبوة.. وألوهية

مشهد مؤثر غاية التأثير ذلك الوالد - أو تلك الأم - الذي يحمل طفله الصغير، فيغمره بنظرات الحب الهائل العميق، وقد لا يملك نفسه فيقبله أصدق قبلة، يحدث هذا بتلقائية ودون إعطاء كثير اهتمام للزمان والمكان.

ويكفي أن يشير الطفل أو يعلن عن رغبته في شراء شيء ما، فلا تجد الأب يتردد لحظة إن كان يملك أن يستجيب لرغبة الطفل، وإن لم يكن يملك أن يستجيب يجتهد في أن يأتي بما استطاع، كما يجتهد في أن يجعل الطفل راضيا باسمها.

العجيب في هذا المشهد أن الطفل الذي يتلقى هذا السيل الخنون من الحب لا يشعر به على الإطلاق، ولا ينتبه له، ولا يفكر فيه، ولا يتوقف عنده، وإذا أتاه ما كان يشير إليه فإنه ينشغل به كل الانشغال ولا يفكر للحظة في أن يمتن أو يشكر هذا الوالد... إنه يأخذه ببساطة..

وهذا الوالد، لا يفكر بدوره في طلب تقدير أو شكر، ولا يسوؤه أن الطفل لم ينتبه له ولا لحيته ولا لمجهوده، ولا يتوقف عند لا مبالاة الطفل بأي شيء إلا بالشيء الذي قد صار بين يديه.

كم أفكر بعد كل مشهد كهذا: تُرى ماذا سيكون حال هذا الطفل مع أبيه عندما يكبر؟ هل سيرعى هذه اللحظة الصادقة حين لم يكن يملك من أمر نفسه شيئاً، وعاش في تلك الحياة فقط بقوة هذا الوالد ومحبه له؟ ترى هل سيتذكر مثل هذا الموقف من الأساس؟

إن مشهد غفلة الطفل عن حب أبويه يثير الخواطر، فهو رغم ما يأخذ من عواطف ومشاعر، وما يبذل له من حب، وما ينفق عليه من أموال، لا ينتبه لهذا أصلاً، فضلاً عن أن يقدره أو يشكره، والأبوان برغم ما يفعلانه لا يطلبان شكراً إلا أن يروه راضياً،

فإذا كان هذا وجدا السعادة كلها وأحسا كأن الكون كله رضي عنهما.

هذا المشهد حريّ أن يذكرنا بالعبد الذي يرعاه الله.. هذا العبد المغمور في بحر النعم، الذي سخرت له السموات والأرض وما فيهن، الذي يمارس «حقه» في السمع والبصر والحركة والكلام والفهم والتفكير دون أن يتنبه إلى موجد هذه النعم وخالقها له والمُنعم به عليه.

وهو يسير في الحياة تغمره النعم، ولا يكف عن طلب المزيد.. ثم لا يكف أيضًا عن الغفلة عمن يأتي له بها، ولا يتوقف كثيرًا ولا قليلا ليشكر المعطي صاحب الفضل.

ربما لم يفكر من الأساس بشيء اسمه «حب الله له»، ولا توقف كما ينبغي عند «حق الله عليه»، وهو لا يخطط في المدى القريب والبعيد كيف يرضي الله، بل كيف يشبع رغباته، وقد يطلبها من الله فيكون قد انتبه فقط لأن الله معه.

هل يعرف الطفل الصغير أكثر من هذا عن أبيه؟ هل يعرف أكثر من كونها موجودين كأنها لا ضرورة لها في الحياة إلا أن يأتيها له بما يجب؟

وأى شيء أسوأ من هذا التصور في ميزان الحق والحقيقة؟ وما هو مقدار الظلم الذي تعرض له الوالدان بهذه الفكرة؟

وكم مرة نجد الأم تعاني وتقطع البيت ذهابا ومجيئا وراء الطفل الشقي تريده أن يأكل وهو لا يريد، مشهد شديد الإيحاءات يفيض بالمعاني، فهي تعاني من أجله هو، وإقناعه هو، أو حتى إجباره لأن يأكل، والطفل الشقي لا يريد ولا يرغب، طفل يسير وراء غرائزه.

لو حذفنا من هذا المشهد عواطف الأمومة وسفاهة الطفولة، ماذا نقول، وبم يمكن أن نعلق على مواقف أبطاله؟ ماذا نقول لرجل يجهد نفسه في إطعام رجل آخر بنفس القدر من الإلحاح ثم الآخر يتمتع بنفس القدر من الإصرار؟

ثم إن الولد قد يُشاغب فيذهب إلى ما يضره، وأحيانا يفعل هذا على سبيل العناد لا أكثر (بعضهم يجب أن يسميه «إثبات الذات»)، يجب أن يقترب من المحاذير.. يلعب

بالنار، يقفز من علٍ، يداعب الكهرياء، يلهو بالسكين.. وهكذا.

إن اندفاعه الوالد لمنعه من هذا ولو بالقوة مفهومة في إطار العواطف الأبوية، وفي إطار سفاهة الأطفال، لا يجرؤ أحد أن يستنكر على الأب أو الأم أنه ضرب ابنه لما اقترب مما يضره، ولا أحد يدافع عن حق الطفل وحرية في أن يفعل ما يريد بدون وصاية من أحد.

لكن لو حذفنا عاطفة الأبوة، وسفاهة الطفولة من هذا المشهد أيضًا، بسم يمكن أن نعلق عليه؟ وماذا يمكن أن نقول ونحن نعرف أننا سنصف حالنا مع الله؟ وما أبلغه من مشهد.

قال الفضيل بن عياض: ما من ليلة يختلط ظلامها إلا نادى الجليل جل جلاله: من أعظم مني جوداً؟ الخلائق لي عاصون وأنا أكلؤهم في مضاجعهم كأنهم لم يعصوني، وأتولى حفظهم كأنهم لم يذنبوا، أجود بالفضل على العاصي، وأتفضل على المسيء، من ذا الذي دعاني فلم ألبه؟ ومن ذا الذي سألتني فلم أعطه؟ أنا الجواد ومني الجود، أنا الكريم ومني الكرم، ومن كرمي أني أعطي العبد ما سألتني وأعطيه ما لم يسألني، ومن كرمي أني أعطي التائب كأنه لم يعصني، فأين عني يهرب الخلق؟ وأين عن بابي يتنحى العاصون؟^(١).

(١) ذكره ابن القيم في: شفاء العليل، تحقيق: محمد بدر الدين، دار الفكر، بيروت، لبنان، ١٣٩٨ - ١٩٧٨، ص ٢٣٨.

مشاهد بسيطة .. عميقة .. محيرة

نفس الإنسان وحياته، غزيرة بالمعاني الدقيقة التي قد تبدو بسيطة وعميقة في نفس اللحظة، وتعقيدات النفس وما تحمله من مشاعر وأحلام وطموحات ورؤى تبدو كأنها غابة ضخمة متشابكة كلما ازدادت فيها عمقا روعك جماها كما روعك يقينك بأنها ما زالت أوسع من قدرتك على الإحاطة.

وفي الحياة مشاهد ما أبسطها وما أعقدها.. قصص يستطيع الفلاسفة أن يقضوا زهرة حياتهم في تأملها، فلا هم يملون، ولا المشاهد تبهت وتفقد قدرتها على الجاذبية، ولا قدرتها على العطاء.

بعض الروحانيات العميقة التي ترسلها إلينا آيات القرآن وأحاديث النبي ﷺ وأقوال من اقتربوا من الله فعلموا ما لم يعلم غيرهم، وقالوا ما لا يستطيع غيرهم أن يفهمه أو يتذوقه.. بعض تلك الروحانيات لا يمكن فهمها بدون النظر والتأمل في بعض مشاهد الحياة.

فكرة الموت مثلا، ما أشد بساطتها، وما أشد عمقها، ولا زال شيئا يحير العقول، واستطاعت أن تفني أجيالا من الفلاسفة والمفكرين قضوا في بحثها أعمارهم وما سبروا أعماقها، وما زالت قادرة على أن تعطي المعاني والأفكار لأجيال وأجيال.. برغم أنها بسيطة.

لكن انظر إلى ذلك التقريب المعجز المبهر لفكرة الموت، يروى عن النبي ﷺ أنه قال: «والله لتموتن كما تنامون، ولتبعثن كما تستيقظون»^(١).

وهنا يبدو مشهد الموت مفهوما، وأكثر قابلية لأن تستوعبه عقول البشر، لكنه ينقلك

(١) ابن لأثير: الكامل في التاريخ، ١/ ٥٨٥.

من مشهد معجز لا علم لك به، ويتركك في بحر مشهد آخر معجز أيضًا وتظن أنك على علم به.. وهو مشهد النوم.

فمن في البشر استطاع ألا ينام؟ ومن من البشر استطاع مقاومة النوم؟

وما سر تلك اللحظات التي تقضيها غائبا عن الحياة والدنيا، ما سرها في تجديد نشاطك ويقظتك، وعودة الوعي والتركيز إلى عقلك؟ وكيف يبدو ذلك الجسد منهارا في أمس الحاجة إلى لحظات غياب عن الدنيا كي يستطيع النهوض؟ وتلك الحواس التي أضناها الإرهاق تبدو وكأنها لا تستطيع مواصلة الحياة إلا بفترة غياب هي الأخرى.

كأن الإنسان مخلوق غير قادر على الخلود ولو أراد.. وجسمه وعقله وروحه هم أول من سيرفضون هذا الخلود وأول من سيعترضون عليه، بل وأول من سيتوقون إلى الموت والفناء..

مشهد معجز يستطيع أن يمدك بالتأملات بلا انتهاء ولا انقطاع.. مشهد بسيط إلى حد البديهية، وعميق إلى حد الحيرة، وسبحان الله الذي أوجد في حياتنا ما يمكن أن نفهمه لنؤمن بما لم نره بعد.

ومشهد اليقين، إذا فكرنا بالمادية المسيطرة على حياتنا سنسأل: كيف يمكن لإنسان أن يثق فيما عند الله أكثر من وثوقه فيما بين يديه؟ أو دعنا نقول: كيف يمكن لأي بشر أن يثق في شيء ليس بيده أكثر من ثقته فيما هو في يده فعلا؟؟

خصوصا إذا كنا نتحدث عن غياب لا تدركه العقول، ولا تستطيع قياسه..

كيف يمكن أن يستشعر إنسان أمنا بلا حدود، وهو قابع في ظروف تضعه في خوف بلا حدود.. كيف يمكن لفقير معدم محاصر بالمشكلات أن يتسهم في راحة واطمئنان وكأنه امتلك الدنيا؟

ما معنى اليقين؟؟ وكيف هو ذلك اليقين؟؟

قد نمضي في التساؤلات والحيرة، لكن الله أوجد لنا مشهدا في الدنيا يقرب الصورة كثيرا. مشهد ذلك الطفل الذي إن دفن وجهه في حضن أبيه أو أمه ظن أن الدنيا كلها لا

تستطيع الاقتراب منه أو إيذائه.. أو ذلك الطفل الهارب نحو أبيه أو أمه من خطر يلاحقه، وهو لا يفكر في أبعد من أن يصل إلى ذلك الحضن.. ذلك الأمان، مع يقينه الذي لا يقترب منه شك أن الوصول إلى ذلك الحضن يعني الأمان. لا تراوده لحظة شك في أن الأب أو الأم لن يكونا قادرين على حمايته.

مشهد (لا منجى من الله إلا إليه).

لا يمكنك أن تفهم كيف تلجأ إلى مصدر الخوف، راجيا فيه الأمان.. لا يمكنك أن تفهم إلا لو شاهدت طفلا تخاصمه أمه أو حتى تضربه وهو يندفع نحوها، ويرتمي في حضنها باكيا ومعتذرا، راجيا منها الوصال في ذات اللحظة التي تضربه أو تدفعه بعيدا عنها..

مشهد فطري يتم بلا حسابات، ولا تفكير.. معنى مغروس في نفس الطفل، وهو مولود به..

وهنا فقط تعلم وتدرك كيف أنه (لا منجى من الله إلا إليه)..

وتدرك أنك (صنعة الله) ومن أحسن من الله صنعة؟؟

ومشهد (البكاء والذل لله).

شيء لا يمكنك أن تفهمه إلا لو شاهدت طفلا يبكي راجيا من أمه أو أبيه. إنه يبكي، وينتحب.. ويعرف أنه لا طاقة له على تنفيذ رغبته تلك أبدا، لذا يبكي.. ينتحب، وهو في بكائه لا يشعر بالذل قدر ما يشعر بالقوة، ولا يرى بكاءه ضعفا قدر ما يراه قدرة.. وهو يعرف - بفطرتة وحدها - أن بكاءه هذا مؤثر وسلاح يمكنه أن يحقق به رغبته.

وسبحان الله.. سبحان الله.. سبحان الله..

سبحان الله وبحمده، عدد خلقه، ورضا نفسه، وزنة عرشه، ومداد كلماته..

سبحان من أوجد فينا نفهم، لمحة مما لا نفهم.

سيطرة عجيبة

لاح لي سؤال فجأة وهو: وكيف تسيطر على جوارحك أصلاً؟
وأدهشني السؤال فعلاً، فالأصل أن الإنسان يستطيع السيطرة على جوارحه.
لكن الحقيقة المجردة، مهما كانت درجة غفلتنا عنها، تقول: إن هذه الجوارح قد
سخرها الله لك، فأمرها بطاعتك، ويوما ما ستفقد هذه السيطرة تماماً، عند الموت وفي يوم
القيامة، وستعمل الجوارح حينها بأمر الله تعالى فتشهد لك أو تشهد عليك.
حينها رفعت أصبع السبابة أمام عيني وصرت أحركه لأعلى ولأسفل، لأحاول
اكتشاف كيف أسيطر عليه؟؟ كيف يتحرك؟؟ كيف يستجيب لي دون جهد؟؟ حتى أنا لا
أعرف كيف وصلت إليه رغبتى في أن أحركه فتتحرك.
بإمكانك أخى القارئ أن تجرب هذا، حرك أى جزء من جسمك، ثم تأمل وحاول
أن تكتشف: كيف وصلت إليه رغبتك في أن تحركه، فاستجاب لتلك الرغبة فتتحرك.
وتصبح الدهشة والحيرة هى سيدة الموقف.
لقد تحرك أصبعى بالفعل، واستجاب لرغبتى في هذه الحركة بكل انقياد وسهولة،
ودون أى نوعية من المشاكل، بمجرد أن أردته أن يتحرك تحرك.
أما كيف استطعت تحريكه؟؟ لا أدرى.
كيف وصلت إليه رغبتى في أن يتحرك؟؟ لا أدرى.
كيف استطعت السيطرة عليه؟؟ لازلت لا أدرى.
ومازلت لا أستطيع التعبير عما حدث، إنما أرجو القارئ أن يجرب هذا بنفسه ليشعر
تلك المشاعر.

إن هذه الجوارح التي سخرها الله لنا، فأصبحت منقادة مطيعة مستجيبة دون تفكير، هذه الجوارح قد تخرج عن سيطرتنا بكل بساطة وسهولة.

قد يأتي اليوم الذي تريدها فيه أن تتحرك، فلا تتحرك.. هكذا بلا سبب، وبلا تفسير.

كما كانت تتحرك وتستجيب بلا سبب وبلا تفسير، ستكف عن هذا الانقياد بلا

سبب ولا تفسير. لقد سقطت سيطرتك عليها، فكان لم تكن لك عليها سيطرة أصلا.

صار كل شيء فيك.. تحت سيطرة الله عز وجل.

﴿ حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٢٠﴾
وَقَالُوا لَوْلَا جُلُودُنَا لَمَنَّا لَشَهِدْنَا بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢١﴾ وَهُمْ يُنَادُونَ لِلَّهِ لَمَّا
كَانُوا يُضَلُّونَ ﴿٢٢٢﴾ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَرْشِدُونَ ﴿٢٢٣﴾ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ
وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢٤﴾ وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ
فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٢٥﴾ [فصلت: ٢٢٠-٢٢٣].

﴿ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾

[يس: ٦٥].

﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٥٠﴾ يَوْمَ يُؤْفِكُ اللَّهُ
دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴿٢٥١﴾ [النور: ٢٥٠].

الماء

هل أتاك نبأ الماء!

يقال: إن من الصعب شرح الواضح، وتبسيط البسيط.

لكن.. كيف يمكن أن يقال إذا كانت تلك البساطة تسيل بعظمة وإبهار لا حد له!
الماء..

لا لون.. لا طعم.. لا رائحة، ولا يمكن أن يستغني عنه بشر!

وإذا غاب الماء فدونه كل ذوات الألوان والطعوم والروائح!

وإذا عطشت فلا تطلب إلا الماء، ولا يروي عطشك إلا الماء.. وهو لا لون ولا طعم
ولا رائحة. كأنها سر خفي يروي الظمأ، ولا تدري كيف استطاع أن يرويه، فليس له
طعم.

وحتى مشهد الماء الزلال الرقراق، مشهد مبدع يروي ظمأ آخر للعين، ولا تدري
كيف ترتاح العين لمشهد الماء.. فليس له لون.

حتى رائحة الماء، ولو أنه لا رائحة له.. لكن أسأل ظمأنا حين يقترب من فمه الماء،
ليحكى له روعة الارتواء.

لا تستطيع أن تقول عن الماء شيئاً كثيراً.. لأن أي كلام يشرحه هو تعقيد لحقيقة الماء
البسيطة.. لكن كيف تفعل وطوفان العظمة السيال من تلك الحقيقة البسيطة يملأ نفسك
وروحك بجمال لا يستطيع القلم أن يفرغه.

لكل كاتب حيرة واختناق، حين لا يجد في بضاعته من الكلام ما يُفرغ به معنى
يحتبس في نفسه.. شخصياً: تبدو أكبر حيرة لي في وصف هذا الماء.

إنه شيء، وكل شيء في ذات الوقت. يبدو بلا روح وهو روح كل الحياة. يبدو بلا حياة، وهو سر حياة الأحياء.

إنه سر ومشهد وحال يُلقى الإيمان في القلب.

ربها كان أفضل حل أن أسكت لأتوقف أمام قول الله تعالى المعجز الذي يفيض بكل تلك المعاني البسيطة المعجزة..

قال تعالى ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٠].

بفتة

حين كنا في أيام الدراسة بالكلية، لم يكن أمام شباب يهوى الكرة إلا أن يلعب في الشارع، والشارع لا يفرغ إلا في أوقات متأخرة من الليل، وإذا جاء آخر الليل حيث يخلو الطريق ويخلو اللعب تكون المشكلة في دوريات الشرطة التي تنقب أجواء المدن ليلا لتتارس شيئاً من عملها وكثيراً من ظلّمها، خصوصاً لو كنا في أواخر العام الشرطي الذي يجب أن يحرر فيه ضابط الشرطة عدداً من المحاضر، مهما كانت ظالمة أو تافهة.. ذلك شرط سادته وكبرائه.

كان يجب علينا أن نلعب بنصف عين، ونصف قلب، ونصف عقل.. لتصرف نصف العين الآخر، ونصف القلب الآخر، ونصف العقل الآخر لمراقبة الطريق تحسباً للهرب بكل العزم وبكل العقل وبكل القلب بمجرد ظهور دورية الشرطة.

الطريف دائماً، أن اللعب يستولي على كل نصف العين الآخر ونصف العقل الآخر لتفاجأ في لحظة.. لحظة واحدة، كلمح البصر بأن دورية الشرطة قد صارت في منتصف الملعب، وصار الجري غير ذي جدوى، بل ذا خطر.

دائماً ما كان الأمر ينتهي بسلام حين يعرف الشرطي أننا طلاب في كلية الهندسة (ذلك من فوائد المجال القليلة) وأنا مغتربون.. ولا أنكر أنه لو أراد صناعة مشكلة لفعل، والحمد لله أولاً وآخراً.

مع تكرار الحادثة، كان العزم يشتد في نفوسنا على أن نتنبه أشد ونحرص أكثر، فليس مضموناً أن يمضي الأمر دائماً بسلام.. ودائماً نلعب، ساعة ينجحون وساعة يفشلون ويمضي الأمر عموماً بسلام، أطرف ما في الأمر أنه ما من مرة كنت فيها معهم ونجحوا.. دائماً يفشلون!!

مرت الأيام، وما يبقي في ذهني من تلك اللحظات إلا مشهد المفاجأة.

كنت أتعجب حقاً، كيف لا ينتبه أحدنا إلى دورية الشرطة إلا وهي في وسطنا تماماً؟
لهذا الحد تأخذنا الحراسة ويأخذنا اللعب حتى لا ننتبه إلا بعد أن يقع الفأس في الرأس.

ولإفادة القارئ فإن اللعب ليس مجرماً ولا محظوراً في قانون، ولكن قانون الطوارئ في مصر، والسلطة السيادية المخولة لأقل رتبة في الشرطة، تجعل من الأفضل لكل أحد ألا يحتك بأي شرطي وأن يتجنبه ما استطاع.

لحظة المفاجأة تلك هي أقوى ما بقي في ذهني منذ تلك الأيام.. كانت قوة المفاجأة تعطيني الدرس على خطورة الغفلة والنسيان.

كانت تلك الحكاية التي تقرب الصورة.

أما الصورة نفسها، فهو مشهد حكاه الله تعالى عن عذابه لثمود قوم صالح حين كذبوا برسالة النبي، فأرسل الله عليهم صاعقة، فكان هذا وصفها:

﴿وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعْتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُتْتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [الذاريات: ٤٣-٤٥].

لقد جاءتهم الصاعقة في لا زمن، وكأنه مهما تصاغر الزمن توجد بين اللحظات فجوات ليس فيها زمن، في فجوة منها انبثقت الصاعقة، فلقد أخذتهم (وهم ينظرون).. في عمق الحياة العادية، حتى أنهم من المفاجأة، أو من العذاب، أو من كليهما ما استطاعوا من قيام).

أخذتهم الصاعقة في لحظة.. وربما كانت اللحظة زمناً أطول من زمن الصاعقة.

أخذوا، وفوجئوا، وعذبوا.. كل هذا في لحظة. (ففرؤا إلى الله).

جعلناهم أحاديث

إن في حياتنا اليومية مشاهد ذات دلالات عميقة حقاً، غير أننا نغفل عنها.

ربما بحكم حبي للتاريخ يأتي على رأس هذه المشاهد آثار الأقدمين، إنها تقف كدليل بلاغته تتدفق من صمته، درس قائم للعين مناسب إلى الوجدان محاور للعقل.. كل هذا في آن واحد.

الإحساس بأن تلك المباني والمعابد والمنارات والقصور والبيوت والمساجد بناها أقوام منهم من مات قبل مائة سنة، ومنهم من انتهى قبل سبعة آلاف سنة، إحساس يصعق الإنسان فيرده كثيراً عن شعوره بأهميته، إذ هو - بكل حياته - شيء غير ذي بال في عمر الأمم والحضارات.

إن الإحساس بأن البشر يتدفقون على هذه الأرض منذ آلاف السنين، وسيستمرون في التوالد والتكاثر ثم الموت والانتفاء والنسيان.. يجعل الإدراك بفردية الإنسان وضآلة عمره وتفاهة شأنه بالنظر لتاريخ الأرض قويا وحيًا.

شعور يدفع نحو السجود للإله الذي يعلو على الزمان، الإله الذي كان قبل أن يكون شيء، وخلق كل شيء، وملايين البشر على طول السنين كانوا تحت عينه وفي قبضته ولا يخرجون عن قدرته ومشيئته.

بعد إدراك حقيقة الفرد لنفسه بالنسبة لهذا الكون ولهذا التاريخ المديد، لا بد له أن يتهيب أمر الحياة وقضية الوجود، فإن الدنيا ليست هي يومه المحدود وعمره القصير، ولا قضايا الوجود هي قضية عمله وبيته وورقه.. إن الأمر أكبر من هذا وأعظم.

وتلك هي عبرة التاريخ، وبلاغة الآثار.. مبان تقف شاهدة تخبر عمّن بناها، ذلك الذي قد انتهت حياته على الأرض وانتهت حياة أحفاد أحفاده، وأحفاد أحفادهم، وما

عاد لهم ذكر ولا يسمع بهم أحد، قد غابوا عن الدنيا، وغابت عنهم الدنيا، ولو لم يكن من أثر ما كان طيف ذكراهم قد مر على قلب أحد.

وتقف شاهدة على أزمان بُنيت فيها، أزمان وعصور قد تلاشت واختفت.. بلاد وأمصار وأسواق وحكام ورعايا وطرائق عيش وعادات واعتقادات.. عصور غابت عن الدنيا، وغابت عنها الدنيا، ولو لم يكن من أثر ما كان طيف ذكراها قد مر على قلب أحد. إن هذا يدفع نحو التفكير الحقيقي في شأن القوة التي تعلق على كل هذا، وتسيطر على كل هذا.. القوة التي تفتي الأكوان والأزمان، ولا يمسه ذلك بشيء.. تفكر يقذف في النفس رهبة الخلود، وجلالة الزمان السرمدي.. رهبة وجلال تتصاغر أمام جلال الجليل جل جلاله.

لم يبق من أقوام العصور إلا آثارهم.. وبعض أفاصيص تنبئ عن أخبارهم، أخبار الماضي الذي يغري قِدمه باختلاق الأساطير..

وقد لا تبقى الآثار كذلك؛ لقد قام العالم المصري القدير الأستاذ محمد رمزي بتأليف موسوعة عن البلاد المصرية، وسماها «القاموس الجغرافي للبلاد المصرية من عهد قدماء المصريين إلى سنة ١٩٤٥م»، وقد بذل الرجل مجهودا خارقا حقا في تجميع سيرة البلاد المصرية والقرى والنواحي والمديريات، جمعها من بطون الكتب ومن سجلات الحكومات القديمة مما لم يضع في أعاصير الأيام، ومن أفواه الشيوخ والمسنين حتى أخرج عملا ممتازا لا يستغني عنه باحث في هذا الشأن.

خرج هذا العمل في ستة مجلدات، لكن المثير للنظر وللعقل أن المجلد الأول كان كله عن «البلاد المندثرة»؛ تلك البلاد التي كانت ذات يوم بلادا وعاش فيها رجال، ودارت فيها حياة، ونشبت فيها أفراح وأحزان، والتهمت فيها صراعات ومعارك، ووقعت فيها حوادث وجرائم.. كل ذلك قد اختفي من على وجه الأرض، واختفت معه البلد ذاتها، أو ذابت في بلدة نشأت إلى جانبها فعملت تقلبات الزمان على خراب الأولى وتعمير الثانية.

ولولا أن البلد قد سجل اسمها مؤرخ في كتاب أو موظف في سجل لما عرف

المعاصرون الآن عنها شيئاً على الإطلاق. لقد استطاع المؤلف أن يحصي ٢٠٧٥ قرية مصرية مندرسة، وهذا العدد يساوي تقريباً نصف قرى مصر (٤٥٪ على وجه الدقة) إلى زمان المؤلف، الذي توفي عام ١٩٤٥ م.

وصار مألوفاً في هذا المجلد الأول أن يقال «قرية كذا.. وردت في كتاب كذا» و فقط. في هذه اللحظة تشعر بأن مسار التاريخ مسار كبير.. قوي.. قاهر، مسار تفنى فيه البلاد والعباد والحضارات والقصور المشيدة، مسار قد يُسفر عن أطلال وآثار، أو قد لا يسفر عن شيء، فكانها ﴿لَمْ تَغْنَبِ بِالْأَمْسِ﴾.. مسار لا يبقى من التاريخ إلا الذكرى.. والذكرى ليست إلا قصصاً وأحاديث.

أحاديث جديدة بأن تجعل النفس ترتد إلى حقيقتها، تفكر في أمرها لتعرف قدرها وحجمها وقدرتها الحقيقية، وسبحان ذي القدرة إذ يقول ﴿بَعْضُهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ﴾.

كيف لمن كان ملء السمع والبصر ألا يبقى منه سوى «أحاديث».. مجرد قصص تخبر عن حاله وعصره، ولا أكثر، تتلى على الأطفال أو في مجالس الأسفار.. ما تلك القوة التي صيرته إلى «أحاديث»؟؟

تلك قوة الله.. جل شأن الله.

يجب أن يعرفها كل قوم لا يؤمنون بها.. أو قل: لا يشعرون بها ولا يفكرون فيها.

وذلك شعاع من نور قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ ﴿٤٢﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ ﴿٤٣﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رَسُولَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتَيْنَاهُمْ بَعْضُهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [المؤمنون: ٤٢].

قراءة جديدة

سورة الحديد

تبدو سورة الحديد، وكأنها تدور حول موضوع رئيسي واحد: الإنفاق في سبيل الله. فكأن هذا هو موضوعها الكبير الذي تصب في معناه أجزاء السورة^(١).

ففي أول السورة حديث عن الله، الإله الواحد الذي تسيح له السموات والأرض وما فيهن، والذي له ملك السموات والأرض، الأول والآخر، الذي يعلم شأن الأرض وأرزاقها ومواردها وثرواتها، ما يدخل فيها من مطر وغيره، وما يخرج منها من زرع ونبات وثمار وغيره، وما يتكون فيها من ثروات ومعادن، كما يعلم شأن السماء ما ينزل منها من رزق ومطر، وما يصعد إليها من الأعمال والملائكة، وهو الذي يعلم شؤون خلقه أين ما كانوا ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

فهو -وحده- مالك السموات والأرض، وكل من يتصور أنه يملك شيئاً فعلى سبيل المجاز، وفي زمن مؤقت محدود، بينما الملك على الحقيقة لله تبارك وتعالى، والدليل أنه هو وحده الذي إليه تُرجع الأمور.

وأنه وحده الذي يُسَيِّرُ الشؤون الكبرى لهذا الكون، فليس غيره من يستطيع أن يولج الليل في النهار وأن يولج النهار في الليل، وأي شأن في حياة الإنسان أكبر من أن يتغير حوله الكون من ليل إلى نهار؟ ومن نهار إلى ليل؟ شمس تشرق ثم تغيب، فلا يملك أحد في الكون أن يحركها أو يوقفها أو حتى يبطن من حركتها. بل مجرد التفكير في هذا بهت

(١) هذا ما بدا لي في قراءة للسورة، وقد راجعت ما تيسر من كتب التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، فلم أر من سبقني لهذا المعنى ممن تناولوا السورة، وقد كنت أتمنى أن يكون قد سبقني أحد فأستفيد منه واستأنس لرويتي به، أما والحال هكذا فهذه خاطرة أختيكم، فما كان من خير فمن عند الله ويتوفيقه، وما كان من خطأ فمني ومن الشيطان.

النمرود لما قال له إبراهيم **الخبيل**: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾
[البقرة: ٢٥٨].

ثم إنه -تبارك وتعالى- مع هذه القدرة التي تحرك الأجرام الكبار، وتسيطر على الشئون العظام في حياة البشر، لا تخفى عليه أدق الدقائق وأخفى الخفايا، ولا حتى خاطرات الصدور، ولا حتى وسوسات النفوس، ولا حديث السر للسر في السر ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾.

اقرأوا الآيات:

﴿سَبَّحَ اللَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ * يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾

[الحديد: ١-٦].

وبعد هذا البيان الذي يوضح للأذهان حقيقة أن البشر على هذه الأرض لا يملكون شيئاً في ميزان الحق والحقيقة، يقول الله تعالى: ﴿آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلِفِينَ فِيهِ﴾، والمعنى واضح: أنفقوا، فهذا مقتضى إيمانكم بالله الذي تسبح له السموات والأرض.. العزيز.. الحكيم.. الأول.. الآخر.. الظاهر.. الباطن.. الذي هو بكل شيء عليم.. الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام.. الذي أحاط بما في الأرض وما في السماء.. الذي له ملك السموات والأرض.. الذي إليه ترجع الأمور.. الذي يقلب الليل والنهار.. العليم بما في الصدور.

يا من آمنوا بهذا.. أنفقوا ﴿مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلِفِينَ فِيهِ﴾.

أي أنفقوا من هذا الذي لا تملكونه بل أنتم متصرفين فيه مثلما يتصرف الوكيل في مال المالك الأصلي، والوصي في مال الذي هو وصي عليه.

أنفقوا من أموال لا تملكونها على وجه الحقيقة، بل أنتم مستخلفين فيها، وعماً قريب تتركونها أو تترككم.

أنفقوا في سبيل الله، فلن يبقى لكم شيء ﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، ولن يستوي من أنفق في وقت الضعف والقلة مع من أنفق في وقت العزة والنصرة، ولكن كلاهما له الجنة.

وإنها لدعوة فياضة بالمعاني إذ تسمع قول الله: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ [الحديد: ١١].. فإنها دعوة تفيض برحمة الله.

رحمة الله إذ يسمي الذي أنفق في سبيله كأنها أقرضه.. أقرض الله!!.. الله الذي يملك السموات والأرض! وتسبح له السموات والأرض وما فيهن ومن فيهن! الله الذي له ميراث السموات والأرض! الله الذي يملك على الحقيقة بحث بصيغة الطلب والاستفهام عبيده أن ينفقوا في سبيله فيقول لهم: أقرضوني قرضاً حسناً، وأنا أضاعفه لكم!!

رحمة الله إذ يعلم من نفوس عباده بخلا وشحاً، فيطلب منهم قرضاً، ويعددهم بأنه سيعطيه لهم أضاعافاً مضاعفة، لا يطلب منهم عطاء أو منحة لا ترد، أو يطلبها حتى على سبيل الشكر وتوفية شيء من نعمه السابغة، بل لا يطلبها حقاً، وهو صاحبها وواهبها ومالكها على الحقيقة.

رحمة الله إذ يعطي القرض المضاعف، ثم يعطي بعده أجراً كريماً!!

وقال المفسرون إن الأجر الكريم هو الجنة، أي أن سداد القرض بالمضاعفة هو سداد في الدنيا قبل الآخرة، وهذا وعد من يملك ويقدر.

ألا ما أحنها من دعوة؟

دعوة تثير الخجل وتقف بالنفس أمام حقيقتها المخزية.. حقيقة بخلها حتى بما لا تملك، وبخلها بما سيذهب من يدها، ثم بخلها بكل هذا على واهب النعم وصاحب

الفضل، على الذي يملك السموات والأرض، على الذي إليه ترجع الأمور.

﴿أَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلِفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا هُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٩﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكَلَّا وَعَدَّ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾ مَنْ ذَا الَّذِي يُقرِضُ اللَّهُ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفُهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾﴾ [الحديد: ٧-١١].

ثم ينتقل سياق السورة إلى المصير إلى الآخر، حيث لم يبق شيء، ولم يعد أحد يملك شيئاً.

وإن الالفت للنظر في هذا السياق أنه تصوير لحال المؤمنين والمنافقين، ولا يأتي على ذكر الكافرين، فهي حكاية ومقارنة بين مؤمن صادق وبين منافق ادعى الإيمان دعوى ظاهرية، ولم يكن الإيمان حقيقة نفسه، والتابع في السياق يفيد بأن هذا هو حال المؤمنين المتصدقين مقارنة بحال المنافقين فتنوا أنفسهم فأسرتهم اللذات والشهوات الشخصية، وأجلوا التوبة وارتابوا في الله وفي وعده وغرتهم الحياة الدنيا.

والسياق مليء بالفاظ وإيحاءات ودلالات العطاء والإنفاق.

فالمؤمنون «يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ»، والمنافقون يطلبون العطاء من المؤمنين «انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ».

والإيحاء في لفظ «نقتبس» يذهب بالخيال إلى مشهد الفقير الذي يطلب الصدقة، فهو يطلب شيئاً بسيطاً صغيراً، لن يضر بصاحب المال إذا أنفق.. لن يؤثر في حجم المال، أو صاحب المال الذي يرفض أن «يقتبس» أحد من ماله، ويمنع هو أن يخرج الشيء البسيط من عنده. إنه يمنع ما ينفع المحتاج ولا يضره هو.

أليس مشهدا مشابها، وجزاء من جنس العمل؟
يُمنعون يوم القيامة أن يقتبسوا نورا يمشون به، ولن يضر نور اقتبسوه أصحاب
الإيمان.

بل يقال لهم: ﴿أزجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا﴾، فيكون ذلك منعا كما سبق لهم أن
منعوا، وطرذاً كما سبق لهم أن طردوا، ثم يحال بينهم وبين النور.

ويومئذ لا ينفعهم المال، فلا تؤخذ منهم فدية، وهنا يُذكر لأول مرة الذين كفروا،
يأتي ذكرهم ليقال لهم: لن تؤخذ منكم فدية، تماماً مثلما لم تؤخذ من الذين كفروا،
ومأواكم النار التي هي مأوى الذين كفروا.. بئس المصير.

وحينها لا يُقال في هذا الموقف ولا يُذكَرون بشيء من وسائل النجاة إلا الفدية، فإنه
يعطي إشارة إلى أن المخاطبين بهذا الكلام تصوروا أو فكروا أو تمنوا أن الفدية ودفع
الأموال يمكن أن ينجيهم وينقذهم من هذا العذاب، وهذه طريقة تفكير البخلاء
والممسكين إذا أحاطت بهم المصائب، فالبعض يحسب أن كل مشكلة يمكن أن تحلها
الأموال، وكل مصيبة يمكن النجاة منها بدفع الأموال.

إن ذكر الفدية هنا فقط دليل على أنهم قوم بخلاء، سُئلوا المال من قبل فمنعوه، فالיום
لا يُسألونه ولا ينفهم.

ثم يتوجه الخطاب القرآني للمؤمنين، يعاتبهم: ألم يأت أوان أن تخشع قلوبهم لذكر الله
وللحق، وعاتب الله المؤمنين بهذه الآية بعد أربع سنوات فقط من إسلامهم، كما في
صحيح مسلم، ثم يحذرهم من أن تقسو قلوبهم، مثلما قست قلوب أهل الكتاب من قبل
حين طال إهمالهم لذكر الله، ففسقوا.

ثم يطمئن الله الذين آمنوا فيذكرهم بأن الله القادر على إحياء الأرض بعد موتها،
وتحويلها إلى المروج والزرع والثمار من بعد ما كانت أرضاً قاحلة وميتة، قادر على أن
يجيي القلوب التي قست، فيجعلها حية خاشعة.

ثم يعود السياق القرآني ليُذكَر المؤمنين بأن التصديق والإنفاق في سبيل الله هو بمثابة

فَضْرِبَ بَيْنَهُمْ سُورًا لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴿ يَأْتِدُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴿ قَالِيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿ اَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿ إِنَّ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ وَالشَّهَادَةُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿ [الحديد: ١٢-١٩].

أما المقطع القادم فلا نكاد نحتاج فيه إلى بيان، ولو شئنا أن نضع له عنوانا، فما أظننا سنختلف على من يقول إن عنوانه «أنفقوا في سبيل الله».

فالآيات الخمس تحمل هذه الرسائل بالترتيب:

- ١- الحياة الدنيا لعب وهو ومظاهر وزخارف مثل النبات المروج والحدائق التي تعجب قصار النظر فلا يفكرون في نهايتها، فما هو إلا قليل حتى يصفر هذا النبات الجميل، ثم يتيسر فيفقد نضارته وزهرته، ثم يكون هشيا محطبا.. فما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور، ليست بمتاع حقيقي مستقر ولا خالد.
- ٢- ولهذا.. لا تتعلقوا بهذا المتاع الزائف والزائل والذي سيتحطم قريبا، وانطلقوا إلى متاع جنة عرضها السموات والأرض.

- ٣- واعلموا أن كل شيء في هذه الدنيا من الأرزاق والأموال والأحداث مقدر عند الله من قبل أن يقع، حتى لا تحزنوا على ما فقدتم ولا تطيروا فرحا بما حصلتتم عليه، فالله لا يحب المختال المتباهي المتفاخر المتكبر.

ثم تأتي الآية التي تفسر من هو المختال الفخور، فهم الذين يبخلون، ويأمرون الناس

بالبخل..

بل هي تفسر كل ما سبق من آيات، وفيها توجيه وإرشاد، فإذا كانت الدنيا متاع غرور، وكان المتاع الحقيقي في الآخرة في جنة عرضها السموات والأرض، وكانت الأرزاق والأموال مقدره مكتوبة من قبل أن يوجد البشر وتوجد الأحداث، فما معنى أن يتفاخر المرء ويتباهى ويتكبر؟..

ما معنى أن يبخل؟..

لا.. بل ويأمر غيره بالبخل؟ بالبخل على الله.. على الله..

ما هذا الجحود؟ بل ما هذا الجنون؟.. فإن الله هو الغني الحميد.

﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوَ وِزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢١﴾ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٤﴾ [الحديد: ٢٠-٢٤].

وتختتم السورة بخمس آيات آخر تُقرِّحقائق الحياة بلهجة حازمة.

١- الله أرسل الرسل بالمعجزات وبالكتب لتعتدل حياة الناس.

٢- وأنزل الحديد، فيه البأس والشدة، وفيه منافع للناس.

٣- إن هذه أمور ليتبين بها من الذي آمن بالله ونصره وهو لم يره.

٤- إن الناس رغم توالي الرسل بالمعجزات، منهم مؤمنون سيأخذون أجرهم وأكثرهم فاسقون.

٥- من آمن فله رحمة واسعة، وله من الله نور، ومغفرة فالله غفور رحيم.

٦- لا حرج على فضل الله، ولا يملك أحد أن يمنع فضل الله، فالفضل بيد الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

وفي هذه الآيات الخمس لا نجد قيمة الإنفاق على وجه الخصوص حاضرة بوضوح كما فيها مضى من السورة، ولكن إعادة التذكير بحقائق الإيمان، وحقائق التاريخ، وحقائق الأمم تدعم الحقيقة الكبرى، حقيقة فناء الدنيا وفناء الناس، وحقيقة أن الله هو من يمنح ويعطي ويتفضل، بلا حرج على فضله، وبلا شرط على عطائه، فهو ذو الفضل العظيم يرسل الرسل ويشرع الشرائع لتعتدل حياة الناس، ويخلق لهم ما فيه منافعهم، ومن فضله أن يجعل الفضل في ذرية المؤمنين، وأن يلقي الرحمة والرأفة في قلوب المتبعين، وأنه يعطي الأجرين والأكثر، ثم يعطي معها النور والغفران.

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِثْنَهُمْ مِّثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي الْمِيزَانِ﴾ ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهَابَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرُسُلِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ﴿لَيْلًا يَعْلَمُ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢٥-٢٩].

قال الطغرائي:

يقولون أبق المال واجمه ممسكا	فعز الفتى في أن يجم ثراؤه
فقلت كلانا لا محالة هالك	فأهون عندي من فنائي فناؤه
ثراء الفتى من دون إنفاقه له	فساد وإنفاق الشراء نساؤه
فأنفق فإن العين يركد ماؤها	فياأسن، والمنزوح يعذب ماؤه

خاتمة

كان ما سبق من سطور مجرد لفت نظر إلى أهمية عبادة التأمل والتفكير، وهى عبادة على سهولتها ويسرها تغرس في القلب معنى اليقين بالله تبارك وتعالى.

أسأل الله أن ينفع بهذه السطور كل من يقرأها، وأسأله تعالى أن يكتبها في ميزان الحسنات وأن يجعلها خالصة لوجهه الكريم جل وعلا، وان ينقيها من كل شائبة من ذنب أو من أمراض القلوب.

كما أسأل أخى القارئ ألا ينسانى بدعاء صادق، فإنه دعوته إن شاء الله مستجابة، وله بمثلها كما أخبرنا بذلك رسول الله ﷺ.

هذا وما كان من توفيق فمن الله وحده، وما كان من خطأ أو سهو أو نسيان فمنى ومن الشيطان.

استقبل التعليقات والتصحيحات على:

moh_elhamy@yahoo.com

والحمد لله أولاً وآخراً، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

محمد إلهامي

<http://melhamy.tadwen.com>

ملحقات الكتاب

سرعة الضوء ثابت كوني

من خلال القرآن

اكتشف العالم المعروف: أينشتاين سرعة الضوء وأنها تساوي: ٢٩٩٧٩٢,٥ كم في الثانية، ولكن المذهل ما اكتشفه مؤخرا أحد العلماء أن هذا الرقم يمكن استنتاجه من آية بالقرآن الكريم، لتكون دليلا جديدا ضد من يزعم أن القرآن من تأليف محمد بن عبد الله ﷺ. سرعة الضوء طبقا للجنة المعايير الأمريكية: ٤٥٧٤, ٢٩٩٧٩٢ + - ٠,٠٠١١ كم ثانية.

وطبقا للجنة المعايير البريطانية: ٤٥٩٠, ٢٩٩٧٩٢ + - ٠,٠٠٠٨ كم/ ثانية ولقد قام المؤتمر العالمي للمقاييس والوحدات بتعريف المتر على أنه: «هو طول المسار الذي يقطعه الضوء خلال أنبوبه في زمن قدره ١ على ٢٩٩٧٩٢٤٥٨ من الثانية». وتنص نظرية النسبية على أن سرعة الضوء هي الحد الأقصى لأي سرعة يمكن أن تبلغها جميع الأجسام المعروفة.

من ألف و أربعمائة عام مضت نزل القرآن الكريم كلام الله عز وجل على محمد ﷺ. معجزة خلبت قلوب العجم قبل العرب، وتحدى الله البشر إن كانوا يشكون في نبوة نبيه أن يأتوا بكتاب مثله إن كانوا صادقين.

أولاً: من المعلوم أن حساب السنين في القرآن الكريم يعتمد على السنة القمرية وليس السنة الشمسية. أي أن طريقة الحساب المتبعة في عدد السنين هي السنوات القمرية، والدليل على ذلك قول الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٥].

إن من المعروف أن القمر يدور حول الأرض بنفس السرعة التي يدور بها حول نفسه (٥٣, ٢٩ يوماً) مما يعني أننا نرى جانباً واحداً من سطح القمر، ويسمى الجانب الآخر بالجانب المظلم بالرغم من أنه ليس بمظلم طوال الوقت، وتسمى هذه الفترة بالشهر الاقتراني الذي يبلغ ٥٣, ٢٩ يوماً. ولذلك في التقويم القمري الشهري يكون إما ٢٩ يوماً أو ٣٠ يوماً. لكن يجب الانتباه هنا إلى أن الأرض تدور حول الشمس، وبالتالي فالقمر يدور حول الشمس أيضاً نتيجة دورانه حول الأرض، فخلال دوران القمر حول الأرض أثناء الشهر الاقتراني، تكون الأرض (و بالتالي مدار القمر) قد قطعت مسافة في دورانها حول القمر. فموقع القمر بالنسبة للنجوم قد تغير. فالوقت الذي يستغرقه القمر ليعود لنفس مكانه بالسماء (كما يرى من الأرض) يسمى بالشهر الفلكي (٣٢, ٢٧ يوماً) حيث يعبر عن الوقت الصافي الذي تستغرقه دورة واحدة في مدار القمر. هذا المدار هو دائري تقريباً بمعدل نصف قطر ٢ يساوي ٣٨٤٢٦٤ كم. راجع الجدول أدناه (من المهم التفريق بين t و بين T).

الفترة	الفلكي	الاقتراني
الشهر القمري T	27.321661 يوماً = ٦٥٥,٧١٩٨٦ ساعة	29.53059 يوماً
اليوم الأرضي t	23 ساعة و ٥٦ دقيقة و ٤,٠٩٠٦ ثواني = ٨٦١٦٤,٠٩٠٦ ثانية	24 ساعة = ٨٦٤٠٠ ثانية

وفي الآية السابقة (١٠ : ٥) نلاحظ أنها فرقت بين الفترة فترة الاقتران الظاهرية لمعرفة عدد السنين و بين الفترة الفلكية الحقيقية لمعرفة الحساب، ولذلك نحن الآن ملزمين في حساباتنا باستعمال النظام الفلكي الحقيقي للشهر القمري واليوم الأرضي. ودقة حساباتنا تعتمد على هذين الرقمين.

يقول الله عز وجل في كتابه الكريم: ﴿يُدَبِّرُ الْأُمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [السجدة: ٥]. فالله سبحانه وتعالى يتحدث عن بعض الملائكة التي تعرج من السماء إلى الأرض.

والمعلوم أن المقصود من هذه الآية أن هذه الملائكة تعرج من السماء إلى الأرض

وتقطع المسافة التي يقطعها القمر في ألف سنة قمرية في يوم واحد (أي أنها تقطع تلك المسافة في يوم يوازي: ١٢ ألف شهر قمرى). والسؤال هنا: ما هي تلك المخلوقات العجيبة؟ وما هي السرعة التي يمكن أن تصل إليها حتى تتمكن من تلك الخاصية المدهشة؟

هدفنا الآن: (١) أن نحسب المسافة الفلكية الحقيقية التي يقطعها القمر خلال ألف سنة (٢) أن نحسب السرعة اللازمة لقطع هذه المسافة خلال يوم واحد فقط عن طريق القاعدة البسيطة: السرعة تساوي المسافة على الزمن

لفهم تلك الآية فهما صحيحا، دعونا نتحدث عن معادلة هامة:

قلنا أن مسافة الألف سنة هو طول المسار الذي يقطعه القمر في خلال ١٢٠٠٠ شهر، أي أن:

$$C * t = 12000 L \text{ (المعادلة الأولى)}$$

حيث C هي سرعة الملائكة، و t هو الزمن الذي يستغرقه القمر في دورة فلكية واحدة حول الأرض وهو كما ذكرنا من قبل (٢٣ ساعة و ٥٦ دقيقة و ٠,٩٠٦ ثانية) أي: ٨٦١٦٤,٠٩٠٦ ثانية. و L هي المسافة التي يقطعها القمر في دورانه في شهر فلكي واحد حول الأرض دون الأخذ بالاعتبار دوران الأرض (و بالتالي مدار القمر) حول الشمس.

دعونا نأخذ V أنها هي السرعة الزاوية المتوسطة لسرعة القمر في المسار الخاص به، وهي تستنتج من طول نصف القطر المتوسط بين المسار والأرض. فيكون: $V = 2 \text{ Pi} \cdot R / T$

و بالتعويض عن R ب: ٣٨٤٢٦٤ كم.. و T ب: ٧١٩٨٦,٦٥٥ ساعة (وهي فترة الاقتران التي تبلغ ٢٩,٥٣٠٥٩ يوم أي متوسط الوقت بين مرور قمرين)

فتج عن ذلك: $V = (2 * 3.146 * 384264) / (655.71986) = 3682.07$

كم/سا

و هذه القيمة معطاة في كل كتب الفلك و تم مراجعتها و اعتمادها من قبل وكالة ناسا.

و دعونا بذلك نقول أن @ هو الملك يجري حول الشمس وفق قواعد النظام الأرضي-القمرى خلال شهر فلكي واحد (٣٢١٦٦١, ٢٧ يوما). فإذا أخذنا بالاعتبار فترة سنة شمسية (٢٥٦٣٦, ٣٦٥ يوما) فيمكننا بذلك حساب @

$$@ = (٢٧, ٣٢١٦٦١ * ٣٦٥) / (٢٥٦٣٦, ٣٦٥) = ٣٦٥, ٢٥٦٣٦ / ٩٢٨٤٨, ٢٦$$

حيث @ هو الثابت الذي يعتمد على زمن الشهر و العام الذي يدور فيه القمر.

و حيث أن وجود الش

مس سيغير الخصائص الجاذبية للفضاء و الوقت، يجب أن نعزل تأثير جاذبيتها من على النظام الأرضي-القمرى بأن نتجاهل دوران النظام الأرضي-القمرى حول الشمس، فإذا اعتبرنا الأرض ثابتة أمكننا أن نطبق القاعدة $V_O = V \cos @$ لنحسب السرعة الزاوية الصافية للقمر، و بذلك يمكننا حساب المسافة الخطية التي يقطعها القمر خلال شهر فلكي واحد.

$$L = V \cos @ \quad T \quad (\text{المعادلة الثانية})$$

بتعويض المعادلة الثانية في المعادلة الأولى نحصل على:

$$C = 12000 V \cos @ \quad T/t$$

و بتعويض قيم الثوابت من الجدول أعلاه؛ حيث $\cos @ = \cos 26.92848 = 0.89157$ و $V = 3682.07$ كم/سا نحصل على:

$$C = 12000 \times 3682.07 \times 0.89157 \times 655.71986/86164.0906$$

$$C = 12000 \times 3682.07 \times 0.89157 \times 655.71986/86164.0906$$

$$\therefore C = 299792.5 \text{ كم/الثانية}$$

و هي السرعة التي تجري بها تلك الملائكة في الكون و هي مطابقة تمامًا لسرعة الضوء التي تعتبر أقصى سرعة يمكن أن تبلغها الأجسام الكونية التي نعرفها حتى الآن. و هذا الحساب يتعلق بدقة الأرقام التي نعلمها عن مدة دوران القمر حول الأرض.

﴿سُرِّيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَ فِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ

عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣].

قصيدة^(١)

أقلها هو ما إليه هداكا
عجبٌ عجاب لو ترى عينكا
إذا حاولت تفسيرًا لها أعياكا
يا شافي الأمراض: من أرداكا؟
عجزت فنون الطب: من عافاكا
من بالنايا يا صحيح دهاكا؟
فهوى بها من ذا الذي أهواكا؟
بلا اصطدام: من يقود خطاكا؟
راع ومرعى: ما الذي يرهاكا؟
لدى الولادة: ما الذي أبكاكا؟
فأسأله: من ذا بالسموم حشاكا؟
أو تحيا وهذا السم يملأ فاكا؟
شهدا وقل للشهد: من حلاكا؟
بين دم ورفث: ما الذي صفاكا؟
يا ميت فأسأله: من الذي أحياكا؟
عن عيون الناس: من أخفاكا؟
ورعاية: من بالجفاف رماكا؟
أنواره فأسأله: من أسراكا؟
أبعد كل شيء مال ذي أدناكا؟
بالمر من دون الثمار غذاكا؟
فأسأله: من يا نخل شوق نواكا؟

الله في الآفاق آيات لعل
ولعل ما في النفس من آياته
والكون مشحون بأسرار
قل للطبيب تحفظته يد الردى
قل للمريض نجا وعوفي بعدما
قل للصحيح يموت لا من علة
قل للبصير وكان يحذر حفرة
بل سائل الأعمى خطا بين الزحام
قل للجنين يعيش معزولا بلا
قل للوليد بكى وأجهش بالبكا
وإذا ترى الثعبان ينفث سمّه
اسأله كيف تعيش يا ثعبان
واسأل بطون النحل كيف تقاطرت
بل سائل اللبن المصفي كان
وإذا رأيت الحي يخرج من حن
قل للهواء تحسه الأيدي ويختفي
قل للنبات يجف بعد تعهد
وإذا رأيت البدر يسرى ناشرا
واسأل شعاع الشمس يدنو وهي
قل للمرير من الثمار من الذي
وإذا رأيت النخل مشوق النوى

(١) أعتذر لكاتب هذه القصيدة ثم للقارئ الكريم، لعدم عثوري على صاحبها رغم محاولة البحث عنه كثيرا.

فاسأل لهيب النار؟ من أوراكا؟
 قمم السحاب فسله: من أرساكا؟
 فسله: من بالماء شق صفاكا؟
 جرى فسله: من الذي أجراكا؟
 طغى، فسله: من الذي أطفاكا؟
 فاسأله: من يا ليل حاك دجاكا؟
 فاسأله: من يا صبح صاغ ضحاكا؟
 عيناك وانفتحت بها أذناكا؟
 لم يكن لتراه فهو يراكا؟
 بالله جل جلاله أغراكا؟
 هو صنعة الله الذي سواكا
 ما الله لم يكتب له الإدراكا
 الشذا الفواح نفح شذاكا
 إلا انفعالة قطرة لنذاكا
 واستقبل القلب الخلي هواكا
 ولقيت كل الأنس في نجواكا
 يا رب حلوا، قبل أن أهواكا
 رانت على قلبي فضل سناكا
 وبدأت بالقلب البصير أراكا
 للتوب: قلب تائب ناجاكا
 حاشاك ترفض تائبا حاشاكا

وإذا رأيت النار شبّ لهيها
 وإذا ترى الجبل الأشم مناطحا
 وإذا ترى صخرًا تفجّر بالمياه
 وإذا رأيت النهر بالعذب الزلال
 وإذا رأيت البحر بالملح الأجاج
 وإذا رأيت الليل يغشى داجياً
 وإذا رأيت الصبح يسفر ضاحياً
 هذى عجائب طالما أخذت بها
 والله في كل العجائب مائل إن
 يا أيها الإنسان مهلا ما الذي
 كل العجائب صنعة العقل الذي
 والعقل ليس بمدرِك إذا
 يا منبت الأزهار عاطرة الشذا هذا
 يا مجري الأنهار: ما جريانها
 رياه هأنذا خلصت من الهوى
 وتركت أنسى بالحياة ولو هوها
 ذقت الهوى مرا ولم أذق الهوى
 أنا كنت يا ربي أسير غشاوة
 واليوم يا ربي مسحت غشاوتي
 يا غافر الذنب العظيم وقابلا
 أترده وترد صادق توبتي

المراجع والمصادر

- ١- ابن أبي شيبه: المصنف في الأحاديث والآثار، تحقيق كمال يوسف الحوت، مكتبة الرشد - الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٠٩ هـ.
- ٢- ابن الأثير، أبو الحسن عز الدين علي بن محمد الجزري: الكامل في التاريخ، تحقيق: أبي الفداء عبد الله القاضي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٧ هـ = ١٩٨٧ م.
- ٣- ابن الجوزي: الموضوعات، تحقيق عبد الرحمن محمد عثمان، المكتبة السلفية، المدينة المنورة، الطبعة الأولى، ١٣٨٦ هـ = ١٩٦٦ م.
- ٤- ابن الجوزي: صفة الصفوة، تحقيق: محمود فاخوري، ود. محمد رواس قلعه جي، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٩ هـ = ١٩٧٩ م.
- ٥- ابن الجوزي: صيد الخاطر، تحقيق: عبد القادر أحمد عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٢ هـ = ١٩٩٢ م.
- ٦- ابن القيم: الفوائد، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٣ هـ = ١٩٧٣ م.
- ٧- ابن القيم: الوابل الصيب، تحقيق: محمد عبد الرحمن عوض، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٥ هـ = ١٩٨٥ م.
- ٨- ابن القيم: شفاء العليل، تحقيق: محمد بدر الدين، دار الفكر، بيروت، لبنان، ١٣٩٨ - ١٩٧٨.
- ٩- ابن القيم: مدارج السالكين، تحقيق: محمد حامد الفقي، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٣ هـ = ١٩٧٣ م.
- ١٠- ابن المبارك، عبد الله بن المبارك بن واضح المرزوي: الزهد، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، دار الكتب العلمية، بيروت.
- ١١- ابن الوزير، محمد بن إبراهيم بن علي بن المرتضى: إيثار الحق على الخلق، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٧ م.
- ١٢- ابن حبان: صحيح ابن حبان، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت،

- الطبعة الثانية، ١٤١٤ هـ = ١٩٩٣ م.
- ١٣- ابن حجر العسقلاني: الإصابة في تمييز الصحابة، دار الكتاب العربي - بيروت.
- ١٤- ابن حجر العسقلاني: فتح الباري شرح صحيح البخاري، دار المعرفة، بيروت، ١٣٧٩ هـ.
- ١٥- ابن رجب الحنبلي: ذيل طبقات الحنابلة، تحقيق: د. عبد الرحمن بن سليمان العثيمين، مكتبة العبيكان، الرياض، الطبعة الأولى ١٤٢٥ هـ = ٢٠٠٥ م.
- ١٦- ابن عساكر: تاريخ دمشق، دراسة وتحقيق: علي شيري، دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٩ هـ = ١٩٩٨ م.
- ١٧- ابن كثير: السيرة النبوية، تحقيق مصطفى عبد الواحد، دار المعرفة، بيروت - لبنان، ١٣٩٦ هـ = ١٩٧١ م.
- ١٨- ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م.
- ١٩- ابن ماجه: سنن ابن ماجه، محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر، بيروت.
- ٢٠- ابن هشام: السيرة النبوية، تحقيق: مجدي فتحي السيد، دار الصحابة، طنطا، مصر، الطبعة الأولى ١٤١٦ هـ = ١٩٩٥ م.
- ٢١- أبو داود: سنن أبي داود، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر
- ٢٢- أبو نعيم الأصبهاني: حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الرابعة ١٤٠٥ هـ.
- ٢٣- أحمد بن حنبل: المسند، مؤسسة قرطبة، القاهرة.
- ٢٤- الألباني: السلسلة الصحيحة، مكتبة المعارف، الرياض، السعودية، الطبعة الأولى، ٢٠٠٢ م.
- ٢٥- الألباني: السلسلة الضعيفة، مكتبة المعارف، الرياض، السعودية، الطبعة الأولى، ١٤١٢ هـ = ١٩٩٢ م.
- ٢٦- الألباني: صحيح الأدب المفرد للإمام البخاري، دار الصديق، الطبعة الأولى: ١٤٢١ هـ.
- ٢٧- الألباني: صحيح السيرة النبوية، المكتبة الإسلامية، عمان، الأردن، الطبعة الأولى
- ٢٨- الألباني: صحيح وضعيف الجامع الصغير وزيادته، المكتب الإسلامي.

- ٢٩- إميل درمنغم: حياة محمد، ترجمة عادل زعيتر، سلسلة ذاكرة الكتابة، وزارة الثقافة، مصر، العدد (١٠٣)، الطبعة الثانية ٢٠٠٩م.
- ٣٠- البخاري: الأدب المفرد، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار البشائر الإسلامية - بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٩ = ١٩٨٩م.
- ٣١- البخاري: الجامع الصحيح المختصر، تحقيق مصطفى البغا، دار ابن كثير، اليمامة - بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٧ = ١٩٨٧م.
- ٣٢- البزار: البحر الزخار المسمى بمسند البزار، تحقيق محفوظ الرحمن زين الله، دار الكتب العلمية - بيروت.
- ٣٣- البغوي: معالم التنزيل، تحقيق: محمد عبد الله النمر وآخرين، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الرابعة، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.
- ٣٤- البيهقي: دلائل النبوة، تحقيق عبد المعطي قلعجي، دار الكتب العلمية - بيروت، ١٤٠٥هـ = ١٩٨٥م.
- ٣٥- البيهقي: سنن البيهقي الكبرى، تحقيق محمد عبد القادر عطا، مكتبة دار الباز - مكة المكرمة، ١٤١٤هـ = ١٩٩٤م.
- ٣٦- البيهقي: شعب الإيثار، تحقيق محمد السعيد بسيوني زغلون، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ.
- ٣٧- الترمذي: الجامع الصحيح، تحقيق أحمد محمد شاكر وآخرون، دار إحياء التراث العربي - بيروت.
- ٣٨- توماس كارليل: الأبطال، ترجمة محمد السباعي، سلسلة ذاكرة الكتابة (١٠١)، وزارة الثقافة، القاهرة، الطبعة الرابعة ٢٠٠٩م.
- ٣٩- الحاكم: المستدرک علی الصحیحین، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ = ١٩٩٠م.
- ٤٠- الحلبي: السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون، دار المعرفة، بيروت، ١٤٠٠هـ.
- ٤١- د. عبد الوهاب المسيري: العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، دار الشروق، القاهرة، الطبعة الأولى ١٤٢٣هـ = ٢٠٠٢م.
- ٤٢- د. علي الصلابي: الانشراح ورفع الضيق بسيرة أبي بكر الصديق، دار الفجر، القاهرة. الطبعة الأولى ٢٠٠٣م.

- ٤٣- د. علي سامي النشار: نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، دار المعارف، القاهرة، الطبعة التاسعة.
- ٤٤- د. قاسم عبده قاسم: إعادة قراءة التاريخ، كتاب العربي (٧٨)، أكتوبر ٢٠٠٩.
- ٤٥- د. مجدى الهلالي: الإيمان أولاً، فكيف نبدأ به، دار التوزيع والنشر الإسلامية، القاهرة، الطبعة الأولى.
- ٤٦- د. محمد عمارة: عندما دخلت مصر في دين الله، دار نهضة مصر، القاهرة، الطبعة الأولى ١٩٩٧م.
- ٤٧- د. مصطفى حلمي: الأخلاق بين الفلاسفة وعلماء الإسلام، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢٤ هـ = ٢٠٠٤م.
- ٤٨- د. مصطفى حلمي: الإسلام والمذاهب الفلسفية، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٥م.
- ٤٩- د. هنري ليك: العودة إلى الإيمان، ترجمة د. ثروت عكاشة، طبعة مكتبة الأسرة، القاهرة ١٩٩٦م.
- ٥٠- ديل كارنيجي: دع القلق وابدأ الحياة، تعريب: عبد المنعم محمد الزيايدي، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة السادسة عشرة، ١٩٩٤م.
- ٥١- السبكي، تاج الدين عبد الوهاب: معيد النعم ومبيد النقم، حققه وضبطه وعلق عليه: محمد على النجار وأبو زيد شلبي ومحمد أبو العيون، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الثانية ١٤١٣ هـ = ١٩٩٣م.
- ٥٢- سيد قطب: في ظلال القرآن، دار الشروق، القاهرة، الطبعة السابعة والثلاثون ١٤٢٩ هـ = ٢٠٠٨م.
- ٥٣- السيوطي: اللآلئ المصنوعة في الأحاديث الموضوعة، دار الكتب العلمية، بيروت
- ٥٤- الشهرستاني: الملل والنحل، تحقيق: محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، بيروت، ١٤٠٤ هـ.
- ٥٥- الشوكاني: فتح القدير الجامع بين الرواية والدراية من علم التفسير، تحقيق: د. عبد الرحمن عميرة، دار الوفاء، المنصورة، مصر.
- ٥٦- الصالحى الشامى، محمد بن يوسف: سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٤ هـ = ١٩٩٣م.

- ٥٧- صمويل هتنتجتون: صدام الحضارات، ترجمة طلعت الشايب، دار سطور، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٩٩ م.
- ٥٨- الطبراني: المعجم الكبير، تحقيق حمدي بن عبد المجيد السلفي، مكتبة العلوم والحكم - الموصل، الطبعة الثانية، ١٤٠٤ = ١٩٨٣ م.
- ٥٩- الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد: إحياء علوم الدين، دار المعرفة، بيروت.
- ٦٠- القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري: الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٨٤ هـ = ١٩٦٤ م.
- ٦١- كارين أرمسترونج: الله لماذا؟، ترجمة: د. فاطمة نصر، د. هبة محمود عارف، دار سطور الجديدة، القاهرة، الطبعة الأولى ٢٠١٠ م.
- ٦٢- محمد قطب: منهج التربية الإسلامية، دار الشروق، القاهرة، الطبعة السابعة عشرة، ١٤٢٨ هـ = ٢٠٠٧ م.
- ٦٣- مسلم بن الحجاج: صحيح مسلم، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي - بيروت.
- ٦٤- موقع أمازون لبيع الكتب (<http://www.amazon.com>)
- ٦٥- موقع قناة العربية على الانترنت (<http://www.alarabiya.net>)
- ٦٦- نديم الجسر: قصة الإيمان بين العلم والفلسفة والقرآن، طرابلس، لبنان.
- ٦٧- النسائي: المجتبى من السنن، تحقيق عبدالفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية - حلب، الطبعة الثانية، ١٤٠٦ هـ = ١٩٨٦ م.
- ٦٨- ول ديورانت: قصة الحضارة، ترجمة: د. زكي نجيب محمود، دار الجيل للطباعة والنشر، بيروت، ١٤٠٨ هـ = ١٩٨٨ م.

الفهرس

- ٣ إهداء
 ٥ تقديم بقلم: أ.د. راغب السرجاني
 ٧ مقدمة

الباب الأول

اليقـين

- ١١ كلنا يريد الإيمان
 ١٨ الإيمان.. اليقين
 ٢١ لماذا نحتاج إلى اليقين؟
 ٣٣ حلاوة الإيمان ولذة اليقين

الباب الثاني

كيف تصل إلى اليقين؟

- ٤١ منهاج السور المكية في تعريف العباد بالله.
- ٤٧ التأمل يؤدي إلى اليقين
- ٦٧ التأمل يملكك إلى باب الهداية.
- ٧٣ التأمل لدى السلف الصالح.
- ٧٧ تحذير مهم: «لا بد أن تتخلص منه فوراً»

الباب الثالث

تعال نتأمل قليلاً.

- ٨٧ للتأمل مجالات عديدة.
- ٩٠ تعال نتأمل.
- ٩٢ ١- التفكير في الكون
- ٩٥ ٢- التفكير في النفس
- ١٠١ ٣- التفكير في القرآن الكريم
- ١٠٥ ٤- التفكير في التاريخ
- ١١٠ ٥- التفكير في أسماء الله وصفاته جل وعلا
- ١١٣ ٦- التفكير في نعم الله
- ١١٦ هل استشعرت؟
- ١١٧ لا تكن أعمى

الباب الرابع

تأملات

- ١٢١ أمومة وأبوة .. وألوهية ..
 ١٢٤ مشاهد بسيطة .. عميقة .. محيرة ..
 ١٢٧ سيطرة عجيبة ..
 ١٢٩ الماء ..
 ١٣١ بغتة ..
 ١٣٣ جعلناهم أحاديث ..
 ١٣٦ قراءة جديدة لسورة الحديد ..
 ١٤٥ خاتمة ..

ملحقات الكتاب

- ١٤٦ سرعة الضوء ثابت كوني من خلال القرآن ..
 ١٥٠ قصيدة ..
 ١٥٢ المراجع والمصادر ..
 ١٥٧ الفهرس ..
